لائحة القومي العربي

طلقة تنوير

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي

عـــــدد 100

01 شباط 2026

نحو مشروع للنّهوض القومي

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 100
01 شباط 2026

محتويات العدد 100 من مجلة طلقة تنوير:

- المشروع القومي: متى نجرؤ أن نحلم؟ / إبراهيم علوش.....2
- قراءة أولية في أزمة اليسار العربي والفلسطيني وأبعادها /عليان عليان.....9
- قراءة في رسالة محمد بن عبد الكريم الخطابي إلى الأمريكيين اللاتينيين / إبراهيم حرشاوي.....14
- ألغاز الجغرافيا السياسية في عالم اليوم / توفيق شومر.....23
- مداخلة بشأن الهوية القومية (1989) / ناجي علوش.....28
- العرب كمخزون استراتيجي للأمم المستباحة / فارس سعادة.....31
- ثمن الغياب: المشروع القومي العربي – دولة الوحدة العربية / بشار شخاترة.....35
- البوصلة الأمريكية والطائفون حول البيت الأبيض / كريمة الروبي.....38
- صفحة ثقافية: رواية "قناع بلون السماء" في البعد التطبيعي / مريم نصر الله.....40
- صفحة ثقافية: لقاءات دريد لحام وباسل الخطيب في السينما / طالب جميل.....44
- قصيدة العدد: فلسطين الدامية / محمد مهدي الجواهري.....48
- رسوم العدد: السودان + غزة.....50

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 100 ـــــــدد
01 شباط 2026

المشروع القومي: متى نجرؤ أن نحلم؟

إبراهيم علوش

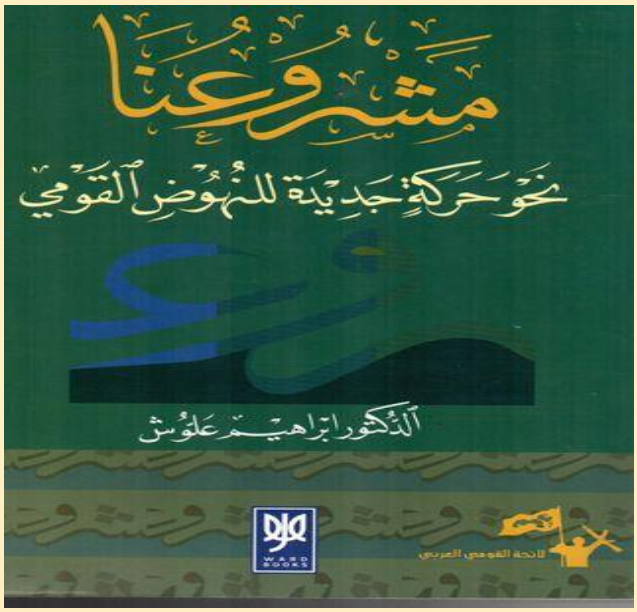

عندما يغرق المواطن العربي في دوامة اللحظة الراهنة، في الخبر العاجل سياسياً، أو في حاجاته اليومية معيشياً، سوف يبدو الحديث عن مشروع قومي، أو في أي شأن استراتيجي، ضرباً من الترف الفكري وانفصالاً عن الواقع.

سوف يبدو عندها أيضاً كأن تسكين ألم الواقع المر بحلولٍ ترقيعية، جزئيةٍ ومؤقتةٍ بالتعريف، أو تسكينه بفانتازيات السفر عبر الزمن إلى ماضٍ ذهبيٍ ما، أو بالتماس الخلاص دونياً عبر التماهي مع المحتل والمهيمن والمستغِل والخضوع لإملاءاته في الوقت الحقيقي، هو "الحل" المنشود، أو الوحيد الممكن على الأقل.

لكنّ مثل تلك "الحلول" تعمّق الأزمات دوماً وتعيد إنتاجها على نطاق أوسع وأعقد، الآن وفي المستقبل. فهي معنى الانفصال عن الواقع فعلياً، وهي المطلوب تجاوزها ذهنياً بالكامل عندما ينخرط المرء جدياً في مواجهة جذريةٍ مع الأزمات المستعصية في واقعنا المعاصر من أجل إيجاد حلول مستدامة لها.

فإذا واجهنا واقعنا بتلك الطريقة، لا يعود الحديث عن مشروع قومي أو عن فكرة وحدوية ضرباً من الخيال الذي يبدو الواقع العربي اليوم كأنه أبعد عنه من أي وقتٍ مضى، بل تصبح القدرة على تخيل الممكن، بسعةٍ، لكنْ استناداً إلى معطيات ما هو كائن، الشرط الأول لممارسة "رياضيات الحلم"، كما أسميتها في كتاب "مشروعنا: نحو حركة جديدة للنهوض القومي" (2009).

وبمقدار ما يتردى واقعنا، وبمقدار ما يتضح أنه سائرٌ في صيرورة التردي إلى غير رجعة، أي بمقدار ما ينجرف تشظياً واستلاباً واغتراباً وانفراطاً للذات المستباحة، بمقدار ما يتضح أن الخروج من ربقة هذا الواقع الرث باتجاه نقيضه، تماسكاً وتكاملاً وإدراكاً للذات وتلمساً لأصالتها، ليس ترفاً ولا شططاً أو قفزاً من فوق شروطه الملموسة، بل أن ذلك النقيض الجذري هو ضرورةٌ تاريخيةٌ من أجل مجرد البقاء، ومن أجل استدراك ذاتنا المهدورة كي تلم شذراتها الممتهنة، وتستعيد حقيقتها المغيبة، وتملأ فضاءها الواسع، وتأخذ مساحتها في التاريخ.

إنه النقيض-البديل، المتخيَّل-الممكن، والجامع-المنفرد، إنه المسافر في الحلم والمتجذر في التاريخ، إنه مشروع الدفاع عن الذات الجمعية عندما يفرضه الواقع ضرورةً موضوعية، إنه الفكرة السامية عندما تنصهر في الذات المناضلة، إنه الحاجة العامة المعجونة بطين الواقع إذا ما أدرك الواقع ذاته في الذات العارفة، باعتبار الواقع امتداداً ملموساً لها، وإذا تجرّد الواقع في تلك الذات، باعتبارها امتداداً عاقلاً له.

إنه البوصلة الواضحة والمثال الأعلى إذا تبنته طلائعُ قررت أن تحوّل الحلم إلى واقع أفضل، وإنه ما قد يبدو مستحيلاً الآن في حين أنه الخيار الوحيد الممكن، وإنه لخيارٌ قابلٌ للتحقق لأنه حاجة موضوعية تتوفر أدوات تلبيتها منا وفينا.

إنه المشروع القومي، المشروع الذي لا يُرى إلا بعينين اثنتين في آنٍ واحد، عين الشاعر التي تستنطق الكامن بين سطور الواقع البائس، وعين المحاسب التي ترى الكائن بكل تفاصيله الصغيرة والرتيبة.

إنه المشروع الذي يحتاج مِراساً في رياضيات الحلم، أي إلى النظر إلى الواقع بكلتا العينين معاً لاستشراف الممكن بين ثنايا الكائن: عين الحالم، وعين الإحصائي، وإلا فإن النظر بالأولى وحدها يؤدي إلى الانفصال عن الواقع، كمن يقلب ناظريه في غيوم السماء مكتفياً بالأماني.

أما النظر بالثانية وحدها فيؤدي إلى الغرق في أوحال الواقع إلى حدود الانتهازية وأكثر، كمن لا يرى إلا ما هو أمام قدميه فقط، باسم "الواقعية"، في حين أن المطلوب من السفن التائهة في البحار المضطربة هو استشراف البرّ في الأفق، وتقصي طير البرق الطائر في أحزان الروح الأبدية، بتعبير مظفر النواب.

إن عقبة الانطلاق في طريق ذلك المشروع القومي تتمثل، أولاً، في غياب الجرأة، فكرياً، على وعي الضرورة عربياً، أي الجرأة على النظر الواقع العربي بكليته، والسعي لفهم سمات ظواهره وأبعادها والصلات فيما بينها، بغرض تكوين تصور متماسك عن قوانين واقعنا التي تحكم إعدادات ظواهره.

ولا بد من تلك المواجهة الفكرية مع الواقع إذا أردنا أن نتجاوز تلك الظواهر بصورةٍ واعيةٍ وفاعلة، تماماً كما يحتاج مصمم الطائرات مثلاً إلى فهم ديناميكيات الهواء Aerodynamics، أو كما يحتاج مصمم الروبوتات إلى فهم الرياضيات التطبيقية Applied Math في مجالي الفيزياء وعلوم الحاسوب. وهي مواجهة تقودنا إلى ضرورة الوحدة لا محالة.

وإن عقبة الانطلاق في طريق ذلك المشروع القومي تتمثل، ثانياً، في غياب الجرأة، سياسياً، على الحلم، أي على خوض تجربة بناء المشاريع الكبرى، الأمر الذي يتطلب ريادة المضي قدماً في دروبٍ غير مطروقة من قبلُ، وصبراً على تحمل الفشل، والتعلم منه، والمحاولة مجدداً، ومجدداً.

والأهم، بعد ذلك كله، هو الاستعداد لخوض الصدام، حتى النهاية، مع قوى الهيمنة الخارجية وأدواتها، وكل مراكز النفوذ المتضررة من قلب الأمر الواقع ثورياً. والثورة، واسمها، يبقيان لنا، حتى لو لوثهما "الربيعيون". ويتطلب تحقيق المشروع فعلياً ثورة عربية عارمة من المحيط إلى الخليج لا تُبقي ولا تَذر.

يعي كثيرون ما يتوجب القيام به عربياً، على أن يقوم به غيرهم، فيكتفون بمقاعد المتفرجين، المصفقين أو البكائين. وهؤلاء يحلمون فقط، ولا يعملون. لكنْ، من يستمرئ القعود، يتمرغ في الركود. ومن يتوخَ الجوائز الكبرى، يستعد لدفع الأثمان الكبرى. ومن يحب الجنة، يتعلم أولاً حب الموت.

في المقابل، لا يعي كثيرون ما يتوجب القيام به عربياً، فيندفعون عفوياً إلى ميدان العمل السياسي من دون بوصلة أو استراتيجية، ومن دون تشخيص لجذور المشكلة أو تصوّر لطريقة معالجتها، أو يندفعون بصورة فردية، وهؤلاء يعملون فقط، ولا يحلمون ولا يحسبون، فيقعون أسرى... للإحباط، أو للتوظيف. ومن يَقتحِم من دون خطة، يؤسر، كما نستشف من كتاب صن تزو "فن الحرب".

العبرة، إذاً، في اتحاد الخيال الخصب بحسابات العقل البارد، والشغف الجامح بحكمة التجربة، والفرد المندفع بالجماعة المنظمة. باختصار، تكمن العبرة في اتحاد وعي الضرورة القومية بضرورة العمل قومياً، في اتحاد النظرية الثورية بالممارسة العملية، وفي مطابقة الممارسة مع الوعي القومي، وفي استرشاد الموقف السياسي ببوصلة قومية، أي في الحلم المحسوب، وفي الجدل اللولبي المتصاعد بين هو كائن وما هو كامن، كي يتحقق المشروع.

إن كل ما نراه في واقعنا العربي المعاصر، وفي تاريخنا الحديث، وفي حالنا كعرب في المشهد السياسي، إقليمياً ودولياً، يعيدنا دوماً إلى نتيجة واحدة، وهي أن كل جذور مشاكلنا تنبثق من ثالوث التجزئة والاحتلالات والتخلف، وأن مشروعنا، بالتالي، يجب أن يعمل على تحقيق ثالوث نقيض هو الوحدة والتحرير والنهضة.

والواقع هو أن حل مشاكل المواطن العربي المعيشية لا يتحقق جذرياً إلا بمشروع تنموي عربي لا يحققه إلا حشد مواردنا القومية في إطار مشروع وحدوي. ولا يوجد شيء اسمه "تأمين عيش كريم للمواطن" من دون مشروع تنموي كبير، من دون تصنيع ثقيل ومتقدم، ومن دون عناية خاصة بالبحث العلمي وتطوير العلوم والتكنولوجيا، في أبجديات علم الاقتصاد.

والواقع هو أن حل مشاكل الأمن القومي العربي، واختراقاته، ومنها مثلاً حماية منابع النيل ودجلة والفرات، وحماية ثروات الخليج العربي وهويته، وانكشاف كل قُطر عربي للاختراق والحصار والاحتلال فعلياً، يتطلب تغييراً جذرياً في موازين القوى إقليمياً ودولياً، الأمر الذي يتطلب استراتيجية أمن قومي عربية واحدة.

والواقع هو أن تحقيق الديموقراطية، لمن يعدّ ذلك هدفه الأسمى، لا يتحقق إلا في إطار دولة المواطنة القومية وعلى قاعدة هوية قومية متماسكة، لا في ظل تشظي الوعي والانتماء طائفياً وجهوياً وعرقياً وقبلياً، وبحرق الشروط الاقتصادية-الاجتماعية اللازمة لقيام الديموقراطية تاريخياً.

والواقع هو أن فقدان العرب لمشروع خاص بهم، وبالتالي لأي وزن جغرافي-سياسي أو أي ثقل فعلياً، في زمن التحول من عالم أحادي القطبية إلى عالمٍ متعدد الأقطاب، لا يعوضه إلا استعادة المشروع القومي العربي على طريق تأسيس دولة الوحدة، كما ساهمت مصر الناصرية مثلاً في حمل حركة عدم الانحياز.

والواقع هو أن مشروع المقاومة، كمشروع ضروري في زماننا للتصدي للهيمنة الأمريكية ولصهينة المنطقة وتفكيكها، هو مشروع يتقاطع مع مصلحة الأمن القومي العربي، من منظور شعبي عربي، لا من منظور المنظومة القُطرية طبعاً.

لكن مشروع المقاومة هو مشروعٌ دفاعيٌ لا مشروع للنهوض القومي، وبالتالي فإنه يُعد شرطاً ضرورياً غير كافٍ للدفاع عن وجودنا القومي. ويكفيه ذلك شرفاً في زمن التطبيع والردة، بيد أنه غير قادرٍ بعد على التحول إلى مشروع للنهوض القومي العربي نتيجة الظروف التي نشأ فيها والقيود التي يفرضها ذلك عليه.

باختصار، إما أن نكون قوميين، وإما أن ننسحق ونخرج من التاريخ. ومن يبحث عن تأسيس عالمٍ مثاليٍ ضمن إطار المنظومة القُطرية التي صُمِمَت كي تكون مأزومة، وكي تفشل، فإنما يلعب في الوقت الضائع فحسب.

ولا يكون المرء، أو التنظيم أو النهج السياسي، قومياً إذا لم تتجاوز رؤيته ومواقفه حدود التجزئة القُطرية (وحدود الطائفة والقبيلة والمنطقة طبعاً)، وإذا لم يضع مقياس مصلحة الأمة فوق أي مقياس آخر.

ولا يكون قومياً إذا لم يدعم كل حركة وموقف مقاوم للاحتلال والهيمنة الخارجيين، أي الاحتلال المباشر وغير المباشر.

ولا يكون قومياً إذا لم يسعَ ويعمل من أجل تأسيس دولة الوحدة، الدولة المركزية القوية، كرافعة للتنمية الاقتصادية والأمن القومي والعدالة الاجتماعية وحكم القانون والمؤسسات.

وبعيداً عن التلهي بترهات "الطريق الاقتصادوي إلى الوحدة"، عن طريق "تمرير الوحدة اقتصادياً، تمهيداً لتمريرها سياسياً"، الأمر الذي رد عليه مفكرون قوميون مثل نديم البيطار وياسين الحافظ مظهرين عقمه وعدم جدواه ولا تاريخيته...

وبعيداً عن سطحية تحقيق المشروع الوحدوي من طريق تأسيس أنظمة "وطنية ديموقراطية" في كل قُطر عربي على حدة، ومن ثم تجميعها معاً (الأمر الذي رددت عليه في الفصل الثاني من كتاب "مشروعنا: نحو حركة جديدة للنهوض القومي")...

وبعيداً عن تحوّل بعض القوميين إلى دعاة لـ "إصلاح الدولة القُطرية" والاستناد إليها (انظر "طلقة تنوير" 12 تحت عنوان "هل يتوجب على القوميين أن يتبنوا دولة التجزئة في زمن التفكيك؟"، وانظر "طلقة تنوير" 58 تحت عنوان "أزمة الدولة القُطرية العربية")...

وبعيداً عن ذلك الاختراق الليبرالي الملوّث للخط القومي العربي الذي يسمى "المشروع النهضوي العربي" الذي طرحه خير الدين حسيب عبر مركز دراسات الوحدة العربية، والذي تبناه المؤتمر القومي العربي لاحقاً (والذي تطرقت إلى بعض جوانبه الرثة في افتتاحية العدد 61 من مجلة "طلقة تنوير")...

نقول بعيداً عن تلك التهويمات "الوحدوية"، فإن تاريخنا العربي الحديث أبرز طريقين لتحقيق المشروع الوحدوي فعلياً، وهما:

1 – طريق محمد علي باشا وابنه إبراهيم اللذين انطلقا من مصر كإقليم-قاعدة في النصف الأول من القرن التاسع عشر كي يضما بلاد الشام ومعظم الجزيرة العربية والسودان (وشرقي ليبيا مؤقتاً)، على طريق تحقيق دولة الوحدة العربية. وهي الطريق التي سلكها بسمارك من بعدهما بعدة عقود كي يوحد ألمانيا مع سنة 1871. فالأصح، بدلاً من الحديث عن الطريق "البِسماركي" للوحدة، أن نتحدث عن الطريق "العلوي" للوحدة، نسبةً إلى أسرة محمد علي.

2 – طريق الحركات القومية العربية في الخمسينيات والستينيات، مثل البعث والناصرية وحركة القوميين العرب. وهي حركات أسست تنظيمات وأحزاب سياسية ساندتها تيارات شعبية عربية واسعة، ووصلت إلى الحكم عن طريق انقلابات عسكرية، ما عدا في حالة الوحدة المصرية-السورية (1958-1961) التي وصل فيها القوميون، عبد الناصر تحديداً، إلى حكم سورية من طريق حراك شعبي في الإقليم الشمالي للجمهورية العربية المتحدة، وجرى إجهاضها في انقلاب عسكري.

ما زالت التجربة العلوية هي الأنجح في التاريخ العربي الحديث في تأسيس كيان وحدوي فعلياً، على الرغم من قصر عمره بالمقاييس التاريخية. وقد نشأت على جنباتها حركة النهضة العربية في مصر وخارجها، وإرهاصات الحركة القومية في الفكر والأدب والمجتمع العربي.

تمثلت مأساة تلك التجربة في تدخل القوى العظمى عسكرياً وسياسياً بصورة مباشرة آنذاك إلى جانب الاحتلال العثماني من أجل تفكيك الكيان الوحدوي العربي، وإعادته إلى الحظيرة العثمانية بالقوة. وجاءت الخطط التنفيذية البريطانية التي وضعها بالمرستون لتأسيس الكيان الصهيوني رداً مباشراً على التجربة العلوية في الوحدة العربية.

وإذا كان الإخوة المصريون يحتفلون بمحمد علي كبانٍ للدولة المصرية الحديثة، ومؤسس الصناعة والتعليم والجيش في مصر، فإن محمد علي وتجربته أكبر من ذلك بكثير، وهو ليس ملكاً للمصريين وحدهم، بل ملكاً لكل الأمة العربية، فهو الذي قدح شرارة يقظتها، ومؤسس أول كيان وحدوي حديث لها.

كما أن ابنه إبراهيم هو بدون مبالغة أعظم قائد عسكري عربي منذ ألف عام، وهو نابليون العرب الحقيقي صاحب فكرة دولة المواطنة القومية، الدولة المدنية، ومحطم الحدود الوهمية، وقاهر الوهابيين الذي محق عاصمتهم الدرعية، وقائد الجيش المصري-الشامي الذي سحق جيوش الاحتلال العثماني مراراً، كان آخرها في معركة نصيبين سنة 1839، والتي كان يقودها ضباط بروسيون (أي ألمان) في الجانب التركي، على رأسهم الضابط هلموت فون مولتكه.

ومن البديهي أن انتساب محمد علي إلى أصول ألبانية عرقياً لا يعني شيئاً لدى القوميين التقدميين، لأن مشروعه كان عروبياً، ولأننا لا نميّز عرقياً، تماماً كما يحسب ستالين على الروس مع أنه جورجي الأصل، وكما يحسب نابليون على الفرنسيين مع أنه من كورسيكا الإيطالية (ويتحدث أهل الجزيرة الإيطالية حتى اليوم بلهجة توسكانا، وتُفرض الفرنسية عليهم لغةً رسمية)، إلخ...

وإذا كان بعض الرفاق الناصريين يمتعضون من الحديث عن محمد علي باشا وابنه إبراهيم بصورة إيجابية، بالنظر إلى أن ثورة 23 يوليو أطاحت بالملك فاروق الذي ينتسب إلى سلالة محمد علي، وإذا كان بعض الرفاق القوميين واليساريين عموماً يمتعضون أيضاً من ذلك الحديث لأن تجربة محمد علي انطلقت فوقياً عبر إطار دولتي وارستقراطي، بدلاً من انطلاقها من القاعدة الشعبية وحراكاتها، فإن استحضار الضرورة التاريخية للوحدة العربية اليوم يفرض علينا الاعتراف أن إبراهيم محمد علي باشا أنجز وحدوياً ما لم ينجزه أي وحدوي من بعده.

وليكن موقفهم الناقدين، على الأقل، كموقف ماركس وإنجلز الداعم للوحدة الألمانية، قبل تحقيقها وبعده، كما في كراس "مطالب الحزب الشيوعي في ألمانيا"، سنة 1848، والداعي لوحدة ألمانيا في كلٍ واحدٍ لا يتجزأ، وفي كتاب "الأيديولوجية الألمانية"

(1845)، وفي جريدة الراين الجديدة (1848)، وفي مراسلات ماركس إلى إنجلز عشية تحقيق الوحدة الألمانية سنة 1871، على الرغم من تحفظهما على نمطها البسماركي العسكري الأتوقراطي، وتفضيلهما لطريق ديموقراطية شعبية إلى الوحدة.

أما الحراكات القومية العربية في القرن العشرين، فكانت مأساتها أن انقلاباتها العسكرية لم تفضِ إلى تحقيق خطوات وحدوية، "بالحديد والدم"، على طريقة بسمارك، أو بطريق ديموقراطية شعبية، وأنها وقعت أسيرة المنظومة القُطرية التي كبلتها بالحسابات التي صممت المنظومة القُطرية كي تكبل الواقع العربي بها.

وكانت إنجازات الأحزاب والقوى القومية الأهم وحدوياً، في القرن العشرين، هي إيقاظ الحس القومي في الشارع العربي، ودعم الثورات وحركات التحرر، وهز أركان الأنظمة التابعة للغرب. (للمزيد بشأن هذه النقطة، الرجاء مراجعة "هل دفن المشروع القومي في دمشق يوم 2024/12/8؟"، في "طلقة تنوير" 97)

باختصار، لا بد من تجاوز حدود التجزئة، في الفكر، في العمل، في الموقف، وفي النظرية، بطريقة "أتوقراطية عسكرية"، أو بطريقة ديموقراطية شعبية، لا مشكلة. وفي الحالتين، سبق نقد المفهوم الكلاسيكي لمقولة "الإقليم-القاعدة" كمنطلق للوحدة في أكثر من مادة، لكنّ المؤكد هو أن تجاوز الحدود لن يجري سلمياً في المحصلة، سواء جاء ذلك نتيجة ثورات شعبية تحتضنها حركة قومية عارمة في الشارع العربي، أو على الطريقة العلوية.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 100
01 شباط 2026

قراءة أولية في أزمة اليسار العربي والفلسطيني وأبعادها

عليان عليان

بدايةً نشيرُ إلى أنّ الأحزابَ اليساريّة والقومية التقدمية، تبلّورت بشكلٍ قويٍّ وفاعلٍ في تيارينِ رئيسيّينِ في حقبة ما بعد الحرب العالميّة الثانية، وهما (أوّلاً) الأحزاب والفصائل التي أعلنت التزامَها بفلسفةِ الماركسيّةِ اللينينية، وتبنّت المنهجَ الماديَّ الجدليَّ في برامجها، وفي وقراءتها للظواهر السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة و(ثانياً) الناصريّة والأحزاب القوميّة التي تبنّت لاحقاً الاشتراكيّةَ مثلَ حزب البعث العربيّ الاشتراكيّ وحركة القوميّين العرب.

أزمةُ اليسارِ وأبعادها

في هذا المقال نتوقّف أمامَ القسم الأوّل من اليسار "اليسار الماركسيّ اللينينيّ"، ونشيرُ ابتداءً إلى أنّ قوى هذا اليسار، عانت - ولا تزال - بشكلٍ خاصٍّ من أزمةٍ عميقة، حكمت تجربتها في إطارِ حركة التحرّر العربيّة منذ ثمانينات القرن الماضي؛ ارتباطاً بعددٍ من العواملِ التي لا تفسّر أزمتها فحسب، بل تفسّر انحرافَ بعضها، وتغطية بعضٍ آخرَ لممارسات اليمين، وبهذا الصدد نتوقّف أمامَ بعضِ القضايا:

أوّلاً: البِنيةُ الطبقيّةُ للعديد من الأحزاب اليساريّة العربيّة في معظمها بِنيةٌ برجوازيّةٌ صغيرة، وهذه البنية في السياق النضالي، عكست حالةَ من التردّد والتذبذب في مواقفها حيالَ العديد من القضايا السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، لدرجة أنّها في مراحلَ معينةٍ وفّرت غطاءً سياسياً لمواقف قوى اليمين ولنهجه الاقتصاديّ والسياسي.

ثانياً: افتقار العديد من الأحزاب اليساريّة العربيّة، إلى ملاكاتٍ فكريّةٍ قادرةٍ على قراءة المرحلة، واستشراف المستقبل واستخلاص البرامج الوطنية المطلوبة التي لا تتقاطع مع برامج اليمين، في حين أنّها امتلكت سابقاً قياداتٍ وكوادرَ وطنيّةً مجرّبةً خاضت معاركَ مشرّفةً ضدَّ الاستعمار والأحلاف الاستعماريّة، وسجّلت مآثرَ في الصمود، وتحدّي الجلاد في الدول الرجعيّة.

ثالثاً: وفي غياب الملاكات الأيديولوجية، عملت معظم الأحزاب الشيوعية العربية على خلق تناقض مصطنع مع المسألة القومية ومسألة الوحدة العربية، متجاهلة بديهية ماركسية تقول : "إن الأممي الصحيح هو الوطني (القومي) الصحيح" في السياق التقدمي الاقتصادي والاجتماعي، وفي الذاكرة موقف بعضها من تجربة الوحدة المصرية- السورية بقيادة خالد الذكر جمال عبد الناصر.

رابعاً: تخلّف معظم هذه الأحزاب عن إدراك التحوّلات العميقة التي عصفت - وتعصف - بعالمنا المعاصر غداةَ انهيار الاتّحاد السوفياتي، وانتهاءً الحرب الباردة، ودخول العولمة الإمبرياليّة مرحلةً جديدةً في تطوّرها.

يضاف إلى ذلك أنّ معظمَ الأحزاب الشيوعيّة - مع بعض الاستثناءات - شأنها شأن العديد من الأحزاب الشيوعيّة في مختلف دول العالم، لم تتجاوز صدمةَ انهيار الاتّحاد السوفياتي والمنظومة الاشتراكيّة، تجاهَ قراءة أسباب الانهيار بشكلٍ معمّق، ممثّلاً بشكلٍ رئيسيٍّ بالجمود العقائدي والبيروقراطيّة والسوفياتيّة، وفي الوقت ذاته لم تقدّم قراءةً نقديّةً لمسيرتها، ولم تراجع تجربتها في سياقٍ نقديٍّ بشأن ارتباطها بالطروحات السوفياتيّة، من أجل تحصين نفسها من هجمة الإمبرياليّة وأدواتها الرجعيّة، بعد أن راح منظرو الرأسماليّة يتبجّحون بفشل الاشتراكيّة في حلّ مشاكل الإنسانيّة، وبعد أن راح "فوكو ياما" يتبجّح في مقالةٍ له "بأنّ الرأسماليّة هي نهايةُ التاريخ".

خامساً: ونظراً للضعف الفكريّ الناجم عن ضعف البناء الأيديولوجيّ؛ أصبحت بعضُ هذه الأحزاب في مهبَّ الريح إثرَ انهيار الاتحاد السوفياتي، ولم تعد تحمل من "الشيوعيّة" سوى اسمها، وراح بعضها أيضاً يفرّق بين الجانب الأيديولوجي، وبين الجانب البرنامجيّ في إطار توجّهٍ يقضي بعدم اعتبار الأيديولوجيا مرجعيّةً للبرامج المطروحة، وذلك في انعطافةٍ مكشوفةٍ نحو الليبرالية، والتغطية الاقتصادية لنهج اليمين في ارتهانه لمؤسسات النهب الرأسمالية "صندوق النقد والبنك الدوليين"، ناهيك أن بعضها – وَفْقَ بعض المنظّرين - باتت أحزاباً هرمةً ذات سياساتٍ تميل إلى المهادنة والتكيّف مع الأمر الواقع والقَبول بأقل القليل، بعد أن تجاوزت المبادئ اليسارية التي قامت من أجلها.

لكن ما يجبُ الإشارةُ إليه هنا أنّ ثمّةَ أحزاباً شيوعيّةً عربيّةً عملت على تجاوز محنة انهيار الاتحاد السوفياتي لاحقاً، عبرَ مراجعةٍ نقديةٍ نسبيّاً لتجربتها، وقراءة أسباب انهيار التجربة السوفياتية، وقدمت مساهماتٍ نظريّةً غنيّةً في قراءة الأزمة، وسبل تجاوزها من خلال مفكرين أدّوا دوراً مركزيّاً في هذا السياق، وأخصُّ بالذكر محمود أمين العالم في مصر.

عدمُ القدرةِ على التقاطِ اللحظةِ السياسيّة

ما يجبُ الإشارةُ إليه أيضاً أنّ الأحزابَ الشيوعيّةَ في الوطن العربي، وفي مختلف دول العالم لم تتمكّن من التقاط اللحظة السياسيّة، التي لاحت مرّتين بعد انهيار الاتّحاد السوفياتي، والتي لو تمَّ الإمساكُ بها لكنّا أمامَ واقعٍ جديد. اللحظة الأولى تمثّلت في أزمة 2008، المالية والاقتصادية الكبرى، التي ضربت الولايات المتحدة جرّاءَ فقاعة الرهن العقاري، وانتقلت بسرعةٍ هائلةٍ إلى بقية أرجاء العالم، مخلّفةً آثاراً اقتصاديةً خطيرةً دفعت النظام الرأسمالي إلى إعادة الاعتبار إلى الكينزية، والتخلّي لفترةٍ عن الليبرالية الجديدة، وكان من نتائجها دفع عشرات الملايين من العمال والمهنيين في العالم إلى خانة البطالة، حيث باتت الفرصة ملائمة لتعبئة الطبقة العاملة وقيادتها نحو التغيير، لكن الأحزاب اليسارية لم تلتقطها.

أما اللحظةُ السياسيّةُ الثانية، فقد تبدت في ثورة الجماهير العفوية من العمال والفلاحين والمثقفين الوطنيين في كل من تونس (17 ديسمبر 2010) ومصر (25 يناير 2011) إذ إن عدم قيام الأحزاب اليسارية بدورها في قيادة الانتفاضتين ووضع برنامج لهما، أتاح الفرصة للإخوان المسلمين أن يتصدروا المشهد رغم عدم مشاركتهم الحقيقية فيهما.

فيما يتعلق بالعنوان المطروح نشير إلى مرحلتين؛ الأولى: مرحلة ما قبل انهيار الاتحاد السوفياتي، والثانية ما بعد الانهيار، في المرحلة الأولى عملت بعض الفصائل اليسارية العربية ومن ضمنها بعض الفصائل اليسارية الفلسطينية، على تبني برامج وطروحات اليمين، بل وتظهيرها، مستخدمةً ما تيسّر لها من قدراتٍ نظريةٍ، قبل أن يبوح بها اليمين نفسه، وعمل البعض الآخر من اليسار على رفض برامج اليمين في سياقٍ إصلاحيٍّ متبنّياً نضالاتٍ مطلبيّةً في سياقٍ نقابيٍّ وبرلماني.

في المرحلة الأولى، أرادت بعض فصائل اليسار أن تحقق بعض الامتيازات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لها على حساب المبادئ، في علاقتها مع أحزاب البرجوازية الوطنية الحاكمة، هذا كله من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أخرى، فإنّ هذا البعض اليساري رأى في موقف الاتحاد السوفياتي من التسوية والصراع العربي، وشبه المتطابق مع طروحات هذه الأنظمة ما يسند مواقفه ويرفع عنه شبهة خدمة اليمين وبرامجه.

اليسار الفلسطيني غطى برنامج اليمين

وقد عملت بعض فصائل اليسار العربي، على توفير التغطية النظرية والسياسية لنهج اليمين كما حصل في الساحة الفلسطينية قبل حرب تشرين (أكتوبر) 1973، وبعدها مباشرة، إذ انبرى فصيلان من اليسار الفلسطيني لتبرير توجّه اليمين الفلسطيني نحو التسوية؛ وهما الحزب الشيوعي والجبهة الديمقراطية.

فبرنامج الجبهة الوطنية المتحدة، الذي طرحه فرع الحزب الشيوعي الأردني في الضفة الغربية، بشأن موضوع التفريق بين تسويةٍ وطنيّةٍ وتسويةٍ استسلاميّةٍ عام 1973، لم يكن معزولاً عن التنسيق مع قيادة فتح، بل وبتوجيهٍ منها. وقد ذهب بعض

المحللين والمفكرين الفلسطينيين، إلى القول: إنّ طروحات المرحليّة بعد حرب تشرين (أكتوبر) 1973، وبرنامج "النقاط العشر" الذي اصطلح على تسميته "بالبرنامج المرحلي" الذي تبناه المجلس الوطني في دورته رقم (12) هو في الأساس برنامج حركة فتح، والجبهة الديمقراطية تطوّعت للتنظير له.

وبهذا الصدد يقول المفكّر غازي الصوراني: "برنامج النقاط العشر هو برنامج قيادة فتح رغم إصداره من قبل الجبهة الديمقراطيّة، وعلى الرغم من اعتراض تنظيماتٍ أخرى، فقد وافق بعضها، وتكيّف الباقي رويداً رويداً مع ذلك البرنامج، وكان بمثابة المدخل الأوّل صوبَ مداخيل التسوية اللاحقة في مسار منظّمة التحرير وحركة فتح".

وتقتضي الموضوعيّةُ القول أيضاً: إنّ اليسار الفلسطينيّ بكلّ فصائلِهِ غطّى لاحقاً برنامج اليمين ممثّلاً "بالمبادرة السياسيّة" الصادرة عن دورة الانتفاضة "الدورة 19 للمجلس الوطنيّ الفلسطينيّ" عام 1988، التي انطوت على الاعتراف بقرار مجلس الأمن رقم 242 "، في حين أبدت الجبهة الشعبيّة تحفّظها على القرار 242، من دون أن تنسحب من اللجنة التنفيذيّة على غرار ما فعلته بعد طرح برنامج النقاط العشر عام 1974، علماً أنّ اليمين الفلسطيني وظّف تلك المبادرة لاحقاً تجاه خلق المقدّمات السياسيّة للولوج إلى اتفاقيّات أوسلو، عبرَ الموافقة على الاعتراف بالكيان الصهيونيّ وعلى نبذ الإرهاب (المقاومة) موجّهاً بذلك أكبرَ ضربةٍ للشعب الفلسطيني في انتفاضته غير المسبوقة" انتفاضة الحجارة" وأهدافها الوطنية.

وفي مرحلةٍ لاحقةٍ بعد انهيار الاتّحاد السوفياتي، وما آلت إليهِ الأوضاع في العراق بعد العدوان الثلاثينيّ عام 1991، حدّدت الجبهتان الشعبيّة والديمقراطيّة موقفاً رافضاً لاتفاقيّات أوسلو 1993، ووصفتا في أدبيّاتهما الاتفاقيّات بأنّها مشروعُ تصفيةٍ للقضيّة الفلسطينيّة، كما أنّ حزبَ الشعب الفلسطينيّ هو الآخرُ حدّد موقفاً نقديّاً منها، في حين أنّ حركة "فدا" التي انشقّت عن الجبهة الديمقراطيّة بقيادة ياسر عبد ربه عام 1990، عملت على تغطية وتبني موقف اليمين الفلسطيني بشأن هذه الاتفاقيّات.

لكن فصائل اليسار الفلسطينيّ رغم رفضها لاتفاقيّات أوسلو، إلا أنّها اندغمت لاحقاً في مخرجاتها، من خلال مشاركتها في انتخابات المجلس التشريعي، ومشاركتها في حكومات السلطة الفلسطينيّة المتعاقبة، باستثناء الجبهة الشعبيّة، التي رفضت - ولا تزال ترفض حتى اللحظة - المشاركة في أيٍّ من تلك الحكومات.

الأحزابُ الشيوعيّةُ العربيّةُ قبل وبعد انهيار الاتّحاد السوفياتي

ما يجبُ الإشارةُ إليهِ هنا، أنّ الأحزابَ الشيوعيّةَ العربيّةَ في مرحلة الاتّحاد السوفياتي تأثّرت بشكلٍ كبيرٍ باستراتيجيّته وطروحاته في مسألة التعايش السلميّ، وغلب على برامجها الطابع الإصلاحي في إطار النضال البرلماني والنقابي، الذي لا يفضي إلى التغيير الجذري. هذا من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى، فإنّها لم تأخذ بنهج المقاومة المسلّحة في مواجهة الاحتلال، ولم تدعم هذا النهج – باستثناء الحزب الشيوعيّ اللبنانيّ - وركّزت على التسوية وَفْقَ قرارات الشرعيّة الدوليّة، متماهيةً بذلك مع نهج الأنظمة الرجعيّة والوطنيّة التي تتبنّى نهج التسوية.

هذا كلُّهُ من جانب، ومن جانبٍ آخر، فإنّ علاقةَ الأحزاب الشيوعيّة مع الأنظمة الوطنيّة في المشرق العربيّ اتّخذت في بعضها طابعاً دمويّاً وتصادميّاً، وفي البعض الآخر طابعاً تحالفيّاً، حيث انشدّت في تحالفها للتناقض الرئيسيّ مع العدوّ الصهيونيّ والقوى الرجعيّة العربيّة والمحليّة، وهذا طرحٌ صائبٌ لكنها غيّبت قانوناً أساسيّاً آخرَ، ألا وهو قانون "التحالف والصراع" إذ استبدلت موضوع الصراع حول بعض القضايا الاقتصادية والاجتماعية والسياسة الخارجية أحياناً، بالصمت أو التعبير النقديّ الهادئ، وهي بذلك وفّرت غطاءً سياسيّاً للعديد من القضايا لهذه الأنظمة.

الأخطر من ذلك أنّنا رأينا حزباً عريقاً، مثل الحزب الشيوعيّ العراقي، يدخلُ بعد احتلال العراق عام 2003، في اللعبة السياسيّة التي أدارها "بول بريمر" - الحاكم العسكريّ الأمريكيّ للعراق آنذاك - مشكّلاً تغطيّةً سياسيّةً لنظام الحكم الطائفيّ، التي هي في التحليل النهائي تغطية للدستور التقسيمي الذي صاغه الصهيونيّ ناحوم فيلدمان.

ورأينا كذلك بعض الأحزاب والفصائل، وبعض الملاكات الفكرية الماركسية - مع بعض الاستثناءات - تلوذ بالصمت أو تتلكأ في الحديث عن المؤامرة على سورية، وتحديد موقف منها، ورأينا البعض الآخر يؤيد المؤامرة على سورية في إطار عمى فكري وسياسي على امتداد الأزمة السورية، التي امتدت من آذار 2011 حتى كانون أول 2024 ، ورأى في عمل الفصائل الإرهابية ثورة على الديكتاتورية، فرأيناها تندغم في أطر رجعية مثل مؤتمر إسطنبول، ومؤتمر الدوحة، ومؤتمر الرياض وتحولت إلى أداة بيد القوى الرجعية والإمبريالية المتآمرة على سورية.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 100 ـــــدد
01 شباط 2026

من الريف المغربي إلى أميركا اللاتينية: قراءة في رسالة محمد بن عبد الكريم الخطابي إلى الأمريكيين اللاتينيين بمناسبة مئوية معركة أياكوشو

إبراهيم حرشاوي

في جبال الريف الوعرة شمال المغرب، دوّى في مطلع عشرينيات القرن العشرين انتصارٌ غيّر معادلات القوة بين المستعمِر والمستعمَر، وأعاد رسم حدود الممكن في زمن الهيمنة الإستعمارية. هناك، قاد محمد بن عبد الكريم الخطابي مقاومة شعبية منظمة ضد الاستعمار الإسباني شكّلت لحظة فاصلة في تاريخ نضال الشعوب المستعمَرة.

لقد شكّل هذا الانتصار الساحق في منطقة الريف المغربية واحدة من أعظم الانتصارات التي حققتها شعوب خاضعة للاستعمار في القرن العشرين، كما مثّل أكبر هزيمة مُذلّة يتكبدها جيش استعماري أوروبي في إفريقيا خلال ذلك القرن. لم يكن ما حدث في الريف شأناً محلياً مغربياً فحسب، بل صدى مدوّياً وصل إلى ما وراء البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، وألهم حركات تحررية في إفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية، مؤكداً أن الإمبراطورية، مهما بلغت قوتها، يمكن كسرها بإرادة الشعوب وتنظيمها.

وما يميّز تجربة محمد بن عبد الكريم الخطابي، إلى جانب عبقريته العسكرية، هو أنه منح لانتصاراته بعداً يتجاوز الإطار المحلي، فحوّلها إلى قضية وطنية وإقليمية وعربية ودولية في آنٍ واحد. فقد أدرك الخطابي مبكراً أن معركة الريف ليست مواجهة مغربية–إسبانية فحسب، بل جزءاً من صراع عالمي أوسع ضد الإمبريالية والاستعمار. لذلك انخرط في شبكة واسعة من اللقاءات الصحافية والمراسلات السياسية، سعى من خلالها إلى استنهاض التضامن الدولي، وفي الوقت نفسه إلى خلق ديناميكية تآزرية بين الشعوب المقهورة والمضطهدة عبر القارات.

لقد عمل الخطابي على مخاطبة الرأي العام العالمي، وربط نضال الريف بنضالات شعوب أخرى في إفريقيا والوطن العربي وآسيا وأميركا اللاتينية، معتبراً أن وحدة المعاناة تفرض وحدة الموقف والمصير. وفي هذا السياق، تبرز الرسالة ذات الدلالة العميقة التي وجّهها الخطابي إلى شعوب أميركا اللاتينية سنة 1924، بمناسبة الذكرى المئوية لمعركة أياكوشو، تلك المعركة التي شكّلت رمزاً لتحرر أميركا الجنوبية من الاستعمار الإسباني. ومن خلال هذه الرسالة، لم يكتفِ الخطابي باستحضار التاريخ المشترك للمقاومة، بل سعى إلى بناء جسر نضالي بين الوطن العربي وأميركا اللاتينية، مؤكداً أن انتصار الشعوب على الاستعمار ليس حدثاً معزولاً.

وقد وجد هذا الخطاب الأممي صداه العملي سريعاً؛ إذ ابتداءً من عام 1925 برزت حرب الريف المناهضة للاستعمار كقضية لافتة في أوساط المناهضين للإمبريالية في أميركا اللاتينية، وأسهمت في إثراء النقاشات الفكرية والسياسية في القارة حول قضايا التحرر الوطني، وحدود الإمبريالية، وإمكانات التضامن بين الشعوب الخاضعة للهيمنة الأجنبية.

وفي هذا الصدد، غدت حرب الريف، الممتدة بين عامي 1921 و1926، نموذجاً حيّاً جرى من خلاله تخيّل التضامن الدولي وتجسيده عملياً، ومصدراً لإلهام تفكير تحرري عابر للقارات، إلى جانب أحداث عالمية كبرى أخرى في تلك المرحلة. وقد اكتسبت هذه الحرب أهمية خاصة لدى المناهضين للإمبريالية في أميركا اللاتينية، لكون الثوار الريفيين واجهوا إسبانيا، القوة الاستعمارية السابقة لمعظم بلدان القارة، الأمر الذي دفع الفاعلين السياسيين والفكريين إلى إعادة النظر في موقع إسبانيا ودورها في سياق ما بعد الاستعمار خلال عشرينيات القرن الماضي.

وفي هذا الإطار، تحوّل محمد بن عبد الكريم الخطابي إلى رمز عالمي للمقاومة ضد الإمبريالية، على نحو يوازي المكانة التي حازها الثائر النيكاراغوي أوغستو ساندينو في الفترة نفسها، إذ عمل بوعي على التعريف بالكفاح المغربي وربطه بقضايا التحرر في أميركا اللاتينية.

ومن بين السياقات التي تجسّد فيها هذا التفاعل الأممي على نحو ملموس، برزت المكسيك بوصفها فضاءً سياسياً وثقافياً حاضناً للخطاب المناهض للإمبريالية في هذه الفترة بالذات، حيث كانت البلاد تعيش تحوّلات سياسية عميقة أعقبت الثورة المكسيكية (1910–1917)، ما أفرز مناخاً راديكالياً منفتحاً على قضايا التحرر.

هكذا تحوّلت المكسيك، ولا سيما مدينة مكسيكو، إلى مركزٍ إقليميٍ للنشاط اليساري والأممي وملاذٍ للمنفيين والناشطين الثوريين القادمين من مختلف أنحاء العالم. وقد أسهم حضور الحزب الشيوعي المكسيكي، وصلاته الوثيقة بالأممية الشيوعية، في ترسيخ هذا التوجّه من خلال إنشاء هياكل تنظيمية متخصصة في مناهضة الإمبريالية وربط النضالات المحلية بقضايا التحرر العالمية، إلى جانب الدور المحوري الذي اضطلعت به منظمات عابرة للأميركيتين، مثل الرابطة الأميركية الشاملة لمناهضة الإمبريالية، في تداول أخبار حركات المقاومة في إفريقيا وآسيا وتقديمها للرأي العام اللاتيني بوصفها جزءاً من معركة واحدة ضد النظام الإمبريالي العالمي.

وقد جاءت كتابة رسالة الخطابي إلى شعوب أمريكا اللاتينية في ديسمبر / كانون الأول 1924، استجابةً لدعوة وُجّهت إليه من الاتحاد اللاتيني الأمريكي للمشاركة في الاحتفالات بالذكرى المئوية لاستقلال بيرو، وهي الدعوة نفسها التي تلقّاها أيضاً الشاعر الهندي رابندرانات طاغور، الحائز على جائزة نوبل للسلام.

في هذه الرسالة، قدّم الخطابي نفسه حليفاً استراتيجياً ومثالاً حياً لمناهضة الإمبريالية بالنسبة للأمريكيين اللاتينيين، مستعرضاً بشكل واسع رموز وأبطال حركات الاستقلال في القارة، ومؤكداً وحدة المصير التاريخي بين شعوب الجنوب في مواجهة الهيمنة الاستعمارية. وقد نُشرت الرسالة لأول مرة في صحيفة *Renovación* الأرجنتينية في ديسمبر 1924، ثم أُعيد نشرها لاحقاً في عدد من الصحف والمنابر المطبوعة في أمريكا اللاتينية، بما في ذلك نسخة نشرتها الجريدة البرازيلية *O Imparcial* بتاريخ 13 نوفمبر / تشرين الثاني 1925.

تزامن انتشار أفكار رسالة الخطابي وأحداث المقاومة المغربية في منطقة الريف مع تصاعد النشاط الصحفي والسياسي المناهض للإمبريالية في أمريكا اللاتينية خلال صيف 1925، حيث لعبت مجلات وصحف عابرة للحدود مثل *Revista de Oriente* في بوينس آيرس، و *Repertorio Americano* في سان خوان، دوراً محورياً في دعم المقاومة المغربية إعلامياً وسياسياً. وعلى ضوء ذلك، تحولت الصحافة من مجرد ناقلٍ للأخبار إلى أداةٍ فاعلةٍ في صياغة الوعي السياسي، لتبرز مجلة *El Libertador* في مكسيكو بوصفها المنصة الأهم التي جمعت أصواتاً متعددة ومثّلت التيارات المختلفة داخل الحركة المناهضة للإمبريالية في القارة.

وقبل التطرّق إلى نصّ الرسالة وتفسير فقراتها وفق المعطيات التاريخية والسياسية والفكرية التي وسمت خطاب الخطّابي في مطلع عشرينيات القرن الماضي، تجدر الإشارة إلى أنّ المناضل والصحافي السوداني أحمد حسن مطر اضطلع بدورٍ بارز في نقل صدى حرب الريف وشرح ملابساتها ومكتسباتها في أمريكا اللاتينية، وذلك من خلال نشاطه السياسي، وإنشائه لجنةً لدعم الريف، وبنائه شبكةً واسعةً من العلاقات مع الجاليات العربية والناشطين في المنطقة.

بدأ مطر مساره منذ سنّ مبكرة باهتمامه بالحركة المناهضة للإمبريالية في المشرق العربي، إذ تابع تطوّر الحركة المعادية للهيمنة البريطانية في مصر، قبل أن يسافر إلى أوروبا، حيث زار مرسيليا واطّلع على الوضع السياسي في المغرب، ثم توجّه إلى طنجة للقاء الخطّابي وعرض خدماته عليه. وهناك أقام، على الأرجح، نحو ستة أشهر مرتبطاً بالخطّابي بواسطة وسطاء، قبل أن يعود إلى فرنسا واصفاً نفسه بـ"مبعوث عبد الكريم".

بعد ذلك، شدّ الرحال إلى أمريكا اللانينية، زائراً البرازيل والأرجنتين وتشيلي، حيث نسج علاقات وثيقة مع الجاليات العربية، ووسّع شبكة اتصالاته، مستفيداً من تفاعل هذه الجاليات واهتمامها بالأحداث المؤثّرة في الوطن العربي. وقد أسهم هذا التفاعل في دعم القضية المغربية ونشر الوعي بمكتسباتها ونتائجها داخل المجتمعات اللاتينية، في سياقٍ تاريخي اتّسم بتزايد تدفّق المهاجرين من بلاد الشام الكبرى إلى أمريكا اللاتينية عقب الحرب العالمية الأولى وانهيار الإمبراطورية العثمانية.

ولم يقتصر أثر صدى انتصارات المقاومة المغربية على نشاط أحمد حسن مطر فحسب، بل امتد إلى مشارقة المهجر، حيث تأسست سنة 1924 تحت إشراف الشاعر إلياس فرحات في البرازيل لجنة لمساندة المقاومة المغربية بمنطقة الريف، سُمّيت بـ"لجنة تحرير العرب".

يذكر فرحات أنه كتب قصيدة لتحية الخطابي بمناسبة الانتصار التاريخي في معركة أنوال، وبعثها بالبريد إلى المجاهد الخطابي، معتقداً أن بإمكان مكتب البريد في طنجة أن يسلمها إلى ممثل الخطابي في المدينة، لكن البريد أرجع الرسالة إليه، فاحتفظ بها أكثر من ثلاثين سنة حتى سلمها بنفسه إلى الخطابي في العاصمة المصرية القاهرة. وفيما يلي مقتطف من القصيدة الموجودة في كتاب *إسلاميات أدباء المهجر*:

صفاتك يا عبد الكريم وإنها/ صفات همام ثائب الرأي حازم

شفيت غليل الشرق يا خير ولده/ وأحييت أموات الرجا والعزائم

وضمن هذا النسق التاريخي والسياسي، تتجه القراءة الآن إلى نص رسالة الخطابي إلى شعوب أمريكا اللاتينية، بوصفها مدخلاً لفهم الدلالات السياسية والفكرية التي كان ينطوي عليها خطابه في تلك المرحلة. ويُعرض نص الرسالة أدناه بالأحرف المائلة، على أن تُقارب فقراتها تباعاً بالشرح والتحليل، وفق سياقها التاريخي والاتجاه الفكري الذي يندرج فيه خطاب الخطابي.

إخوتي الأعزاء،

ردًّا على الرسالة الودّية التي وجّهتها "مجموعة التجديد" في بوينس آيرس، أتوجّه، وقلبي يفيض فرحاً، إلى جميع شعوب أميركا اللاتينية، في اليوم المجيد الذي يحتفلون فيه بالعمل العسكري الذي منحهم الاستقلال وحرّرهم من نير السيطرة

الأجنبية. فلا يوجد حقٌّ أقدس ولا أسمى ولا أشدّ حرمة من حقّ كلّ شعب في أن يحكم نفسه بنفسه، وأن يختار لنفسه شكل الحكم الذي ينسجم أكثر مع طبيعته وتطلّعاته. إنّ الاحتفالات المنظَّمة لإحياء الذكرى المئوية لمعركة أياكوتشو تجد صداها في قلوب جميع الشعوب التي تناضل من أجل حريتها، وأنا أشارككم مشاعركم في هذه اللحظة، بحماسٍ مشروع، بصفتي الوصيّ المؤقّت على جمهورية الريف.

لا يمكن قراءة هذه الفقرة بوصفها مجرد افتتاح بروتوكولي أو تهنئة ظرفية، بل بوصفها مدخلاً مكثفاً يختزل التصور الفكري والسياسي الذي كان الخطابي يحمله تجاه العالم الخاضع للهيمنة الإستعمارية. فافتتاح الرسالة بنداء "إخوتي الأعزاء" لا يندرج في إطار المجاملة البلاغية، بل يشكّل اختياراً لغوياً مقصوداً يؤسس منذ السطر الأول لرابطة تحررية، قوامها الأخوّة لا الانتماء الديني أو الثقافي الضيق. فالأخوّة هنا ذات بعد سياسي–أخلاقي، تُقيم صلة رمزية بين شعوب خاضت، أو ما تزال تخوض، تجارب مختلفة للتحرر من الاستعمار، رغم تباعد أمكنتها واختلاف سياقاتها. كما أنّ توجّه الخطابي في خطابه إلى "جميع شعوب أميركا اللاتينية"، لا إلى دولة بعينها، لا يعكس فقط وعياً بوحدة المصير بين المستعمرات السابقة، بل يؤشر كذلك إلى نظرته لأميركا الجنوبية، بوصفها كتلة جيوثقافية واحدة تشكّلت تاريخياً في مواجهة تجربة استعمارية مشتركة. فبهذا التحديد الجغرافي–الثقافي، يتجاوز الخطابي المقاربات القطرية الضيقة، ويُدرج نضال الريف المغربي ضمن فضاء أممي واسع، تقوم وحدته على تشابه شروط الهيمنة الاستعمارية وتجارب مقاومتها، لا على القرب الجغرافي أو الروابط القومية المباشرة فقط. تماشياً مع ذلك، يستدعي الخطابي الذاكرة الثورية العالمية، ممثلة في معركة أياكوتشو، لا بوصفها حدثاً منقضياً، بل باعتبارها مرجعية نضالية حية تتجاوز الحدود الجغرافية، وتكرّس إدراج جمهورية الريف المغربي ضمن أفق تحرري إنساني شامل، تتلاقى فيه التجارب وتتوحد الأهداف.

يُقاتل الشعب البطولي في المغرب في هذه اللحظة من أجل نفس المثُل التي دافع عنها ميرندا، مورينو، بوليفار وسان مارتن. لقد أحببت دائماً وأعجبت بأبطال أمتكم، وما زلنا اليوم نشعر بالإعجاب تجاه المغامرات الجريئة والشجاعة لماسيو ومارتي. نمتلك، من حيث العِرق والثقافة والدين، من الصفات ما يمنعنا من قبول سيطرة أية قوة أوروبية، أيًّا كانت. وكما فعلتم أنتم، قبل قرن من الزمن، في كفاحكم من أجل الاستقلال، فإننا نقدّم اليوم تضحية أرواحنا وممتلكاتنا على مذبح الحرية الوطنية.

وقد أفسدتها الحرب العالمية، وأُلقيت أوروبا في فوضى أخلاقية بفعل الشهوات الإمبريالية الملازمة للنظام الرأسمالي، ففقدت بذلك حقها في فرض أفكارها وإرادتها على شعوب الأمم الأخرى. نرغب في بناء حضارة قائمة على السلام والعدالة الاجتماعية. نحن، شعوب العرق العربي، نريد صد نير إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا. لقد وجه إخوتنا في مصر الضربة الأولى، وآمل أن يشهد العالم الضربة الثانية التي ستُوجَّه هنا في المغرب، حينها سيحين وقت الجزائر وتونس وطرابلس، حيث يستعد شعوبها بالفعل للحظة التحرير الكبرى.

يعكس هذا الجزء من رسالة الخطابي رؤية شاملة للمقاومة الريفية، إذ يربط النضال المحلي في المغرب بتجارب التحرر في أمريكا اللاتينية، مستحضراً رموز الاستقلال مثل ميرندا، مورينو، بوليفار وسان مارتن، إلى جانب ماسيو وخوسيه مارتي. ويؤكد الخطابي أن الشعب المغربي يقاتل من أجل نفس القيم والمثل العليا التي ألهمت قيادات حركات الاستقلال اللاتينية، مما يمنح مقاومته شرعية تاريخية تتجاوز الإطار المحلي، ويبرز الحق في تقرير المصير كجزء من الهوية الجماعية والثقافية، مدعماً التضحية الفردية والجماعية «على مذبح الحرية الوطنية» كرمز للالتزام الوطني.

ويكتسب هذا الربط بعداً تاريخياً أوسع، عند الإشارة إلى مقالة كتبها الزعيم الكوبي خوسيه مارتي بعنوان "المغاربة في إسبانيا" (*Los moros en España*)، نُشرت في صحيفة *Patria* بتاريخ 31 أكتوبر 1893، أي قبل فترة الخطابي بعقود، حيث أشاد فيها بمقاومة سكان الريف للاحتلال الإسباني ووصفها ككفاح مشروع من أجل الأرض والدين والكرامة الوطنية. وقد صاغ مارتي موقفه في عبارة رمزية صريحة: "فلنكن مغربيين"، كإشارة إلى أن تجربة الريف كانت نموذجاً يمكن الاطلاع عليه والاستفادة منه، وأنه كان مطلعاً على المغرب والثقافة العربية، وهو ما يتضح أيضاً من أعماله الأدبية.

يكتسب هذا الربط مزيداً من العمق عند النظر إلى تقرير صحفي مطول نُشر في مجلة *Revista Vea y Lea* الأرجنتينية في فبراير / شباط 1963، بعد وفاة الخطابي بأسابيع، حيث كتب الصحفي والكاتب الأرجنتيني راوول جاسن عن تجربة الخطابي ضمن سياق الحركات المناهضة للاستعمار، مشيراً إلى أن الخطابي حدّثه عن تاريخ حرب الغاوتشو بالأرجنتين، وكان يحب أن يقارن نفسه بالجنرال الأرجنتيني مارتين ميغيل دي غويميس.

ويضيف التقرير بعداً وثائقياً للخطاب، مؤكداً أن الخطابي كان واعياً بالخبرات السابقة في أمريكا اللاتينية، وربط بين تجربته في الريف وتجارب الآخرين، ما يظهر مدى الاطلاع والتفاعل الفكري مع الحركات التحررية خارج المغرب.

ومن زاوية الهوية العربية، يشير الخطابي في رسالته إلى **"نحن، شعوب العرق العربي"**، مستثمراً الهوية الثقافية والسياسية كرافعة لنضال التحرر الجماعي. ويجدر التوضيح أن استخدامه لمصطلح «العرق» لم يكن بمعنى التفوق أو العنصرية، بل يعكس الانتماء الجماعي والثقافي للأمة العربية، مؤطراً تجربة الريف ضمن بعد أوسع للأمة العربية، ومبرزاً أن الانتماء القومي والثقافي يشكل قاعدة لفهم مقاومة الاستعمار والارتباط بين التجارب المحلية والتجارب الدولية في أمريكا اللاتينية.

قضيتنا، كما كانت قضيتكم، قضية عادلة. لا تدفعنا الكراهية تجاه إسبانيا، التي كانت في الماضي وطننا ومهد أجدادنا. فكل إسباني متعلم يعلم أنه في زمن العصر الذهبي للفنون في إسبانيا، كان العرب يشكلون الأغلبية. وفي اللحظة الحاسمة التي أبعدتنا فيها الحرب الدينية عن شبه الجزيرة، التي زينتها فنوننا وأغناها نشاطنا، حلت ساعة مظلمة أدت إلى هذا الانحدار الذي ألقى بهذا الإرث الحبيب إلى حالة من التدهور الذي لا يمكن إصلاحه، والذي ما زال يكتنفه حتى اليوم.

لقد جرّت الوطنية المرضية لدى الطبقات العسكرية والكاثوليكية في إسبانيا الشعب الإسباني إلى حرب طائشة وكارثية، حوّلت المغرب إلى مقبرة لأبنائه وإلى بئر بلا قاع لميزانياته العسكرية. وما زال هنا، معرضاً للموت، شباب إسبان فقراء، كما كانوا يُرسلون قبل مئة عام ليلاقوا حتفهم في وديان الأنديز، وقبل ثلاثين عاماً في أدغال كوبا.

تُظهر هذه الفقرة بجلاء البُعد الأخلاقي والسياسي في خطاب الخطابي، إذ يؤكد أن المقاومة بالمغرب ليست نتيجة كراهية لإسبانيا، بل تنبع من الإيمان بالعدالة التاريخية وحق المغرب في تقرير مصيره، حين يقول: «قضيتنا، كما كانت قضيتكم، قضية عادلة». ويبرز الخطابي وعيه العميق بالتاريخ والحضارة المشتركة بين العرب وإسبانيا، مشيراً إلى أن العرب شكلوا الأغلبية خلال العصر الذهبي للفن الإسباني، وأن الحروب الدينية وسياسات التعصب كانت سبباً في إبعادهم عن شبه الجزيرة، ما تسبب في تراجع ثقافي واجتماعي لم تتداركه أوروبا حتى اليوم. ويعزز هذا الإطار التاريخي شرعية المقاومة في الريف المغربي باعتبارها محاولة لتصحيح الظلم التاريخي، وليس صراعاً عنصرياً أو دينياً.

يوظف الخطابي لغة تصويرية لوصف التعصب العسكري والكاثوليكي في إسبانيا، الذي جرّ هذا الشعب إلى حرب مجنونة، ما حول المغرب إلى "مقبرة هاوية لا قاع لها"، صُبّت فيها ثروات البلاد. كما يستعرض الماضي والحاضر عبر الإشارة إلى مصائر الشباب الإسباني الذين أُرسلوا للموت في الأنديز وكوبا، مستفيداً من هذه الأمثلة لإظهار أخطاء الإسبان التاريخية وتكرارها عبر الزمن، وربط هذه التجربة بتجربة المغرب، ما يعزز قوة المقارنة بين السياق المحلي والسياقات الأمريكية اللاتينية.

ورغم هذا السياق، يظل الخطابي حريصاً على التفريق بين الشعب الإسباني والقوى الحاكمة. ويؤكد أن الإسبان أنفسهم كانوا ضحايا التعصب والطائفية، في حين يظل كفاح المغرب قائماً على العدالة الوطنية وليس على الانتقام. ويجمع في نصه بين التحليل التاريخي والنقد السياسي والأخلاقي، ليصوغ خطاباً متوازناً يجمع بين البعد الأخلاقي والسياسي والتاريخي بأسلوب مقنع وجاذب للمتلقي.

تُقزِّزنا مثلُ هذه المجازر! لِنَطْلُبْ من إسبانيا أن تتخلّى عن هذه المغامرات التي لا تجلب إلا الخسارة الصِّرفة؛ وأن تترك المغرب كما تركتْ «أمريكتم»؛ لكي نشرع في إنجاز مشروع السلام، والعمل، والنهضة، الذي سيمكننا من بناء أممٍ لا تقل كرامةً عن تلك التي أنتم شيدتموها.

أخاطبكم كإخوة، لأن الدم الإسباني الذي يجري في عروقكم هو في معظمه دمٌ عربي، كما هو حال جميع الإسبان في جنوب شبه الجزيرة، أولئك الذين انطلقوا من بالوس، ومن إشبيلية، ومن قادس، ليزرعوا في أميركاكم الحبَّ العربي الذي بعث من جديد في الغاوتشو وفي اللانيروس، وإن كان مغطّى بعلامات دينٍ آخر.

يبدأ الخطابي بنداء أخلاقي قوي، يعبر فيه عن استنكاره الشديد للمجازر التي ارتكبها الاستعمار، مستخدماً لغة حادة تعكس رفضه القيمي والسياسي للعنف الاستعماري. ويستند في نقده إلى مقارنة تاريخية، مشيراً إلى انسحاب إسبانيا من أمريكا اللاتينية، ليبرز فشل الاستعمار ويمنح مقاومته شرعية ضمن سياق تحرري. علاوةً على ذلك، يربط الخطابي بين رفض الاستعمار وطموحه في بناء مجتمع حر وكريم، داعياً إلى السلام والعمل والنهضة كوسائل لإنشاء دولة مغربية تحاكي الأمم التي شيدها الأوروبيون، ما يعكس رؤية شاملة تجمع بين المطالب الأخلاقية والسياسية.

ولتوضيح البُعد الهوياتي في تصور الخطابي، يمكن الإشارة إلى العلاقة بين العرب وأمريكا اللاتينية ومفهوم "الهسبانية"، مع الأخذ بعين الاعتبار أن بعض المفكرين، مثل الإسباني رودولفو جيل بنوميا والمفكر اللبناني حبيب إستيفانو، الذين كانوا من جيله، قد يكون الخطابي اطلع على طروحاتهم أو وجدها متقاربة مع تصوراته.

وقد ساهم إستيفانو في نقل الثقافة العربية والحفاظ على هويتها داخل الجاليات العربية في أمريكا اللاتينية وربط بين الوطن العربي والمجتمعات اللاتينية. ووفقاً لجيل بنوميا، ابتكر إستيفانو كلمة "الهسبانية" عام 1925 لتوازي "العروبة"، معتبراً أن لكل عربي مهاجر وطنين: وطنه الأصلي وأمريكا الإسبانية، حيث استعاد العرب شعورهم بالوحدة و"عروبّتهم" بعد التشتت (جيل بينوميا، *الهسبانية والعربية*، مدريد، 1948، ص. 103-108). وقد بدا تشابه هذه الأفكار مع تصور الخطابي واضحاً عبر ما نشر في الكتابات والمجلات، من دون أن يعني ذلك أنه تأثر بها مباشرة، بل كتقاطع تصوري مع خبراته ورؤيته الثقافية.

ويمتد هذا البُعد الهوياتي إلى سياق أوسع عند النظر إلى ما طرحه جيل بنوميا منذ عشرينيات القرن العشرين، الذي أشار إلى ترابط ثلاث دوائر: الأوروبية (إسبانيا)، والعربية الشرقية، والهسبانو-أمريكية، الناشئة من تجربة الأندلس وهجرة العرب إلى أمريكا اللاتينية. وقد بلور هذه الأفكار في كتبه ومنشوراته، ما يضع خطاب الخطابي ضمن سياق تاريخي وثقافي أوسع، ويظهر التقاء هويات وتجارب مختلفة في التاريخ المشترك للأمم.

في هذا الإطار، يتضح البُعد الخاص بالخطابي: فهو لم يقتصر على الهسبانيسمو اللاتيني-الأمريكي كما هو، بل أعاد تفسيره من منظور عربي مقاوم للطرح الإستعماري، إذ يدمجه بما يخدم قضية التحرر الوطني المغربي والعربي واللاتيني. ويبرز الخطابي أن الدم الإسباني هو في معظمه عربي في جنوب شبه الجزيرة الإيبيرية، وأن الثقافة العربية التي نقلها الإسبان إلى أمريكا ما

زالت حية في المجتمعات اللاتينية، ليحوّل بذلك الهسبانيسمو من أداة إمبريالية محتملة إلى خطاب هوياتي يدعم المقاومة والتضامن بين العرب وشعوب أمريكا اللاتينية.

والدعوات التي تصعد إلى الله من أجل رفاهكم وسعادتكم، من جميع أبناء جمهورية الريف. وفي الوقت نفسه، أرجو منكم أن تحثوا آلهتكم وقديسيكم على أن يقترب يوم استقلالنا أكثر فأكثر، كما قد وصل يومكم بالفعل. إن الذكرى المجيدة لأياكوشو تشكل مصدر إلهام لجميع الشعوب المقهورة. إنها درسٌ نحمله في قلوبنا، وإذا كان الحصول على الحرية سيكلّفنا آلافاً وآلافاً من حياتنا، فلن نقول أبداً إن العدد كان كثيراً. سنقاتل بلا توقف حتى نتمم مهمتنا، وهي تحرير جميع الشعوب العربية على ساحل البحر المتوسط وفي آسيا الشرقية. إن المغرب الحر ومصر الحرة سيكونان الركيزتين اللتين ستقوم عليهما نهضة أمة، أمةٍ كرّمت ثلاث حضارات من حضارات الإنسانية.

إخوتي الأعزاء، أرجو أن تولوا اهتماماً متعاطفاً بهذه الرسالة التي يرسلها إليكم شعب المغرب على لساني، بدمه الحار المتوقد في قلوبهم. ليس من الضروري أن أقول لكم إننا، من خلال مناشدتنا لتعاطفكم، لا نطلب منكم أن تتخذوا موقفاً ضد إسبانيا، التي تصالحتم معها منذ أن رضيت بالاعتراف بحقكم المقدس في الاستقلال. ونحن أيضاً، بعد يوم أياكوشو، والذي سيمكننا الله وشجاعتنا من بلوغه من يوم إلى آخر، سنرى حقنا في الاستقلال معترفاً به أخيراً من قبل إسبانيا، وعندئذ سنعود لنكون أصدقاء مرة أخرى، نحن وهي — أخت قديمة وحبيبة.

نأسف لأن حالة الحرب، وحقيقة أننا غير معترف بنا من قبل حكومات أوروبا الإمبريالية، تمنعنا من إرسال بعثة إلى الإخوة في الاحتفال بالذكرى المجيدة لأياكوشو. ولكن كونوا على يقين أننا لن ننتظر مئويته الثانية لنقيم مع حكوماتكم علاقات أخوية متينة، مصاغة بروح الإخلاص وبعيدة كل البعد عن النفاق التقليدي الذي يميز دبلوماسية الإمبريالية الرأسمالية.

إخوتي الأعزاء، إنه في ميدان المعركة، حيث يخسر العدو يوماً بعد يوم أرواحاً كانت ثمينة، أن شعب المغرب، بانضمامه إليكم للاحتفال بالذكرى المئوية ليوم أياكوشو، يبعث إليكم بهذه الكلمات على لساني.

الموقّع

عبد الكريم الخطابي

الوصي المؤقت لجمهورية الريف

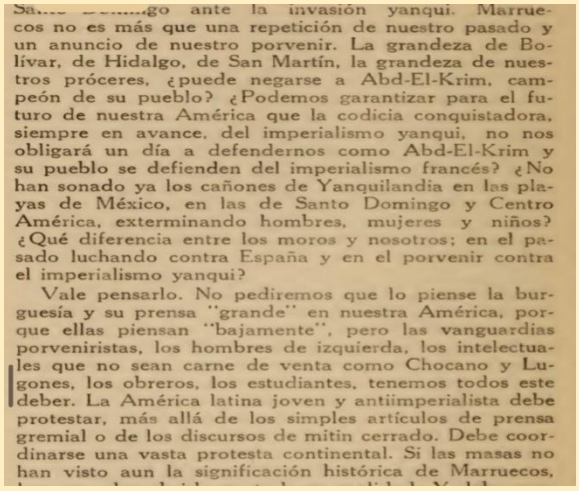
...go ante la invasión yanqui. Marruecos no es más que una repetición de nuestro pasado y un anuncio de nuestro porvenir. La grandeza de Bolívar, de Hidalgo, de San Martín, la grandeza de nuestros próceres, ¿puede negarse a Abd-El-Krim, campeón de su pueblo? ¿Podemos garantizar para el futuro de nuestra América que la codicia conquistadora, siempre en avance, del imperialismo yanqui, no nos obligará un día a defendernos como Abd-El-Krim y su pueblo se defienden del imperialismo francés? ¿No han sonado ya los cañones de Yanquilandia en las playas de México, en las de Santo Domingo y Centro América, exterminando hombres, mujeres y niños? ¿Qué diferencia entre los moros y nosotros; en el pasado luchando contra España y en el porvenir contra el imperialismo yanqui?

Vale pensarlo. No pediremos que lo piense la burguesía y su prensa "grande" en nuestra América, porque ellas piensan "bajamente", pero las vanguardias porveniristas, los hombres de izquierda, los intelectuales que no sean carne de venta como Chocano y Lugones, los obreros, los estudiantes, tenemos todos este deber. La América latina joven y antiimperialista debe protestar, más allá de los simples artículos de prensa gremial o de los discursos de mitin cerrado. Debe coordinarse una vasta protesta continental. Si las masas no han visto aun la significación histórica de Marruecos,

الفقرة الأخيرة من رسالة الخطابي توضح مجدداً أنه لم يكن مجرد قائدٍ عسكريٍ يقود المقاومة في الريف، بل كان صاحب رؤية وطنية وعربية وأممية الأفق. فهو يجمع بين البعد الوطني، الهوية العربية الجامعة، والخطاب الديني المتسامح، إذ يعرّف قضية الريف المغربي من منظور وطني وحدوي، لكنه يتجاوز ذلك ليضع المقاومة الريفية ضمن مشروع أوسع للأمة العربية بأسرها. ويؤكد على تحرير الشعب العربي على ساحل البحر المتوسط وفي المشرق العربي، ويربط بين المغرب الحر ومصر الحرة باعتبارهما الركيزتين اللتين تقوم عليهما نهضة الأمة العربية. كما يشدد على أن الأمة العربية كرّمت ثلاث حضارات من حضارات الإنسانية، ما يعكس بعده الحضاري والإنساني الشامل.

ويستحضر الخطابي في رسالته معركة أياكوشو في أمريكا اللاتينية مرة أخرى كمصدر إلهام للشعوب المقهورة، مشدداً على أن الحرية مقدسة يجب الدفاع عنها مهما كلف ذلك من أرواح. ويبرز بذلك أن مقاومة الريف جزء من مشروع عالمي للتحرر، ما يربط تجربته المحلية بسياق النضال العالمي ضد الاستعمار. وفي الوقت نفسه، يوازن الخطابي بين دعوته الدينية المتسامحة، التي تبدأ بالدعاء للرفاه والسعادة، وبين الخطاب السياسي والأخلاقي، إذ لا يدعو المتلقين إلى اتخاذ موقف عدائي ضد إسبانيا بعد اعترافها بحقهم في الاستقلال، بل يطالب بالاعتراف بحق المغرب المشروع في الحرية مع الحفاظ على الصداقة بعد تحقيق هذا الحق.

ويكشف خطاب الخطابي عن وعي استراتيجي دقيق، حيث يمثّل الجمهورية الريفية، الدولة المقاومة التي واجهت فرنسا وإسبانيا، ويؤطر مشروعه الوطني التحرري في أفق يتناقض كل التناقض مع أي خطاب انفصالي معاصر، مؤكداً أن كلماته وأفعاله كانت دائماً تمثل الشعب المغربي ككل، لا فئة معينة.

في ميدان المعركة، يحوّل الخطابي التضحيات اليومية للشعب المغربي إلى رمز حي للوطنية، مع ربطها بالاحتفال بالذكرى المئوية ليوم أياكوشو، جامعاً بين التاريخ والواقع، بين الوعي والتضحية، ليظهر كقائد مقاوم للجمهورية الريفية، مستلهماً من التاريخ، ومؤطراً لمشروع نهضة يمتد من المغرب إلى المشرق والجنوب العالمي، بعيداً عن أي اختزال أو تحريف لماضي المقاومة المجيد.

ويُظهر تتبّع أصداء رسالة الخطابي خارج المجال العربي أن الكتابات والمواقف الصادرة في أمريكا اللاتينية خلال عشرينيات القرن العشرين عكست مستوى لافتاً من التفاعل السياسي والفكري مع قضية الريف المغربي، حيث لاقت دعوة الخطابي إلى التضامن استجابات حماسية من مختلف أنحاء أمريكا اللاتينية، عكست عمق التفاعل مع قضيته خارج المجال العربي.

ففي العاصمة البيروفية ليما، أشاد المفكر الماركسي خوسيه كارلوس مارياتيغي بالخطابي بوصفه وريثاً لكلٍّ من بوليفار وسان مارتين، ونموذجاً يُحتذى به لجيل الشباب في أميركا اللاتينية الناطقة بالإسبانية، معتبراً أن "الحضارة الغربية تشعر بالتهديد من الخطابي". غير أن مركز الحملة الدعائية ظل متمركزاً أساساً في مدينة مكسيكو، حيث تبلورت شبكة دعم أكثر تنظيماً وتأثيراً.

ففي مايو / أيار 1925، صوّرت مجلة لا أنتورشا، التي كان يصدرها خوسيه فاسكونسيلوس في العاصمة المكسيكية، الخطابي بوصفه بطلاً شجاعاً مناهضاً للاستعمار، يستحق كل أشكال التضامن. وجاء في المجلة: "إن أميركا الجمهورية ستخون سبب وجودها ذاته إذا ما غضّت الطرف نفاقاً عن النضال الذي يخوضه الريفيون الإعجابيون ضد الإمبرياليات المتوسطية المتداعية، المُمثَّلة – ويا للأسف – بشعوب لاتينية".

ومع تطور هذا الوعي، لم يقتصر الخطاب المناهض للإمبريالية على الدعم الرمزي أو الاستعارات التاريخية، بل انتقل سريعاً إلى الكشف عن ترابطات أكثر مادية بين أمريكا اللاتينية والمعركة الدائرة في الريف. ففي هذا الإطار، كتب رافائيل كاريو، الأمين العام للحزب الشيوعي المكسيكي، مقالاً حول أساليب تجنيد الفيلق الأجنبي الإسباني في أمريكا اللاتينية، مدّعياً أن القناصل الإسبان أقنعوا بالفعل آلاف الشبان بالانضمام إلى الجيش الإسباني عبر "إثارة الحماسة الرومانسية لدى شباب أميركا". غير أن هؤلاء الشبان، الذين جرى تلقينهم الاعتقاد بأنهم يقاتلون من أجل "الحضارة" و"حرية وشرف العِرق الأبيض" و"غير ذلك من ترّهات الإمبريالية"، كانوا في الواقع يشاركون في حرب قائمة على الهيمنة والنهب. وبالنسبة للمناهضين للإمبريالية، لم تكن هذه الممارسات تعرّض الشباب للخطر فحسب، بل تجعلهم متواطئين في إعادة إنتاج السيطرة الأوروبية على إفريقيا.

وفي الاتجاه ذاته، عبّر المناهض للإمبريالية البيروفي فيكتور راول هايا دي لا تورّي عن موقف أكثر جذرية، إذ لم يتردد في إدانة الأفعال الإسبانية في إفريقيا، معتبراً أن صمت المثقفين الإسبان عن جرائم المغرب يُسقط عنهم أي ادعاء أخلاقي. ومثل مارياتيغي، رأى هايا في الثوار بالمغرب (الموروس) عِرقاً أصيلاً يتقاسم مع شعوب أمريكا اللاتينية تاريخاً مشتركاً من الغزو الإسباني. ومن هذا المنطلق، اعتبر أن العسكرة الإسبانية "تحاول أن تغزو إجرامياً عِرقاً آخر، أصيلاً وبطولياً مثل أعراقنا."

ومن خلال انخراطه في قضية المغرب، بلور هايا رؤيته الخاصة لـ"إندو-أميركا" بوصفها مشروعاً حضارياً قائماً على الفكر ما قبل الاستعماري، رابطاً بين الإمبريالية الأميركية والاستعمار الأوروبي. وفي هذا السياق، فسّر مزاعم مشاركة طيارين أميركيين في الحرب بالمغرب بوصفها تدريباً عملياً على إبادة الشعوب الأصلية في المناطق الجبلية، معتبراً أن المغرب لم يكن، في نظره، سوى "تكرار لماضينا وإعلان عن مستقبلنا". وهكذا، تحوّل المغرب إلى رمز مركزي في المخيال المناهض للإمبريالية في أمريكا اللاتينية.

وضمن أفق هذا التلاقي الفكري والسياسي بين نخب أميركا اللاتينية والقضية المغربية، تبرز رسالة الخطابي بوصفها تعبيراً مركزياً عن هذا الوعي التضامني، إذ تُشكّل رسالته إلى شعوب أميركا اللاتينية بياناً سياسياً متكامل الأركان في مواجهة الاستعمار والإمبريالية، وهي تعكس بوضوح أسس التعاون والتآخي بين الشعب العربي وشعوب أميركا اللاتينية. وبذلك، لا تكتسب الرسالة قيمةً ظرفيةً مرتبطةً بسياقها التاريخي فحسب، بل ترتقي إلى مرتبة المرجعية الفكرية التي تُؤطّر هذا التضامن.
كما أنها أسهمت في توسيع أفق التفكير التحرري داخل فضاء الجنوب العالمي، ومنحت هذا التلاقي بعداً نظرياً وسياسياً يتجاوز لحظة نشأته التاريخية.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 100
01 شباط 2026

ألغاز الجغرافيا السياسية في عالم اليوم

توفيق شومر

هل تؤدي سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إلى نهاية النظام العالمي الذي تشكل بعد الحرب العالمية الثانية؟ أم أن تصرفات الولايات المتحدة ناتجة عن تقهقر هذا النظام، في محاولة يائسة للبقاء في موقع متقدم؟ هل تصرفات إدارة الولايات المتحدة ناتجة عن غباء سياسي أم عن استخدام غير معهود لأدوات القوة ضمن منظومة ما بعد الحرب العالمية الثانية؟ ما هي العوامل التي تؤثر بشكل حاسم في السياسة العالمية؟ وهل ستكون تصرفات الصين متناسبة مع ما يعتقد أنها ستكون عليه ضمن فهمنا للعالم؟ هل سيكون للعوامل التأسيسية في العلاقات الدولية مكان في تحليل ما يحدث اليوم حولنا؟ هذا المقال سيحاول أن يقدم إضاءات على المشهد، ولكنه لن يحاول أن يقدم إجابة شافية.

لنضع النقاط على الحروف أولاً. الولايات المتحدة الأمريكية هي إمبراطورية في طور الأفول، ولكنها ما زالت قوية بما يكفي لتحدث الكثير من الأضرار في الطريق. الصين هي القوة الوحيدة المهيأة لتبوُّء المركز الأول في السياسة العالمية. وبلغة أوضح، الصين هي الإمبراطورية القادمة. اللاعبون الآخرون في المعادلة الدولية هم: أوروبا، وهي في حالة تراجع كبير، روسيا، وهي لاعب مهم وأهميتها تنبع من مساحتها وموقعها بالإضافة للمصادر الطبيعية لديها وكونها دولة نووية، الهند، وهي قوة في طور الصعود، ولكن حجمها وطبيعتها الديمغرافية واقتصادها يؤهلها للعب دور مهم، والعديد من الدول التي تسعى لأن يكون لها موقع على الخارطة السياسية مثل البرازيل، وجنوب أفريقيا، واليابان، وغيرهم.

الاقتصاد العالمي اليوم يعتمد على جملة من العوامل الأساسية: التكنولوجيا ومدى تطورها، المصادر الطبيعية، مصادر الطاقة، خطوط التجارة العالمية. وبالتالي فإن الهيمنة على هذه العوامل ستؤدي بالضرورة إلى هيمنة القوة المسيطرة عليها. ولذلك ففي الجغرافيا السياسية تعتبر هذه العوامل هي المحرك الأساسي للنزاعات بين القوى العالمية.

في منطقتنا كانت العوامل التي جعلت من المنطقة حلبة للصراع تتمثل في الطاقة، فبعد حرب تشرين عام 1973 أخذت الإمبريالية قراراً بعدم تكرار ما حدث، وكان الشعار يومها "لن يحدث ذلك ثانية أبداً" (Never Again) بالإشارة لاستخدام العرب لسلاح النفط. حينها بدأت حروب النفط على المنطقة بأشكال متعددة من افتعال حروب أهلية إلى افتعال حروب بين دول المنطقة، إلى التلاعب بالاختلافات الطائفية والعرقيات المفتعلة لتفتيت الوطن العربي. وبعدها جاءت حروب الغاز، ونحن اليوم على أعتاب حروب الشمس.

حرب الإبادة على غزة كانت، وما زالت جزءاً من حروب الغاز علينا. ويضاف إليها اليوم حروب الممرات التجارية. فعشية السابع من أكتوبر 2023 كانت الإمبريالية تخطط لخطوط تجارية بديلة لطريق الحرير في حربها ضد الصين. وكان الخط الهندي هو الأساس. الخط الهندي ينطلق من موانئ الهند ليصل إلى ميناء جبل علي في الإمارات المتحدة، وثم ينطلق براً عبر المملكة السعودية إلى الأردن وثم يتجه غرباً إلى الكيان الصهيوني ليصل إلى ميناء أسدود والذي كان من المتوقع توسيعه ليصبح الممر للشحنات باتجاه أوروبا. استلزم هذا الخط وجود اتفاقات مع الكيان الصهيوني من دول المنطقة فكان اقتراح ما يسمى بالاتفاقات الإبراهيمية كوسيلة لضمان إمكانية التبادل التجاري والسماح بعبور الشحنات عبر الخط الهندي إلى أسدود. كان السابع من أكتوبر إشعاراً بفشل المخطط، فكان لزاماً أن يتم تصفية المقاومة لضمان مسير الخطوط التجارية.

لنحلل قليلاً ما حدث فيما يتعلق بخطوط التجارة. السابع من أكتوبر أوقف سيل الاتفاقات الإبراهيمية عندما أعلنت السعودية انسحابها من التفاوض (حتى لو كان هذا الانسحاب شكلياً). وأنصار الله الحوثيون بدأوا بحرب الإسناد التي منعت السفن من الإبحار إلى ميناء أم الرشراش وتعطل الميناء بشكل كامل، وهذا إنذار ثانٍ لحرب الممرات. فبعد أن كانت الأساطيل الأطلسية بقيادة الولايات المتحدة تدعي حمايتها للممرات المائية وسيطرتها على البحار جاء الفعل اليمني ليثبت هشاشة هذه الحماية فكان لزاماً على دول الأطلسي أن تستجيب بإعلان الحرب على اليمن لإيقاف جبهته.

حققت الإمبريالية وربيبتها انتصارات جزئية في المنطقة، ولكنها خسرت الكثير على المستوى العالمي، إن كان باستمرار تراجعها أمام التقدم الكبير للصين، وإن كان على مستوى الموقف الأخلاقي.

استراتيجية الأمن القومي الجديدة للولايات المتحدة هي المخرج، برأي الإدارة الحالية، للتراجع العالمي للهيمنة الأمريكية، فإذا دمجنا هذه الاستراتيجية مع العوامل المؤثرة في السياسة العالمية يمكن بكل وضوح أن ندرك ما ترمي إليه سياسة الإدارة الحالية للولايات المتحدة من تصرفاتها وتصريحاتها. لا يجب علينا أن ننظر إلى الرئيس ترامب على أنه "مجنون" أو "لا يعرف ماذا يريد ويغير رأيه كل دقيقة". فهو، على الرغم من صلافة تصرفاته، يعرف ما يريد ويتجه لتنفيذ سياسة الأمن القومي بطريقة فجة.

في رئاسته الأولى، كان ترامب يطرح الانكفاء داخل الحدود و"جعل أمريكا عظيمة مرة ثانية". اليوم هو يوسع من الدائرة لأنه أدرك أنه لا يستطيع أن يحقق الأغراض التي يسعى إليها من خلال الانحسار داخل الأسوار. بالتالي بدأ الحديث عن النصف الغربي للكرة الأرضية على أنه كتلة واحدة لا بد من الهيمنة بالكامل عليها: فكندا هي الولاية 51 للولايات المتحدة، ولا بد من إخضاع وإركاع أمريكا الجنوبية بالكامل لسياسة الولايات المتحدة ضمن مبدأ مونرو، أو "مبدأ دونترو" الجديد، ولا بد من إخضاع أو شراء أو احتلال غرينلاند.

الحديث عن أمريكا الجنوبية لا يخرج عن الصراع على المعادن النادرة والطاقة بأشكالها، والحديث عن كندا وغرينلاند يقع ضمن ضمان خطوط تجارة جديدة تمر خلال المحيط المتجمد الشمالي. وهذا الخط البحري الجديد يقلل المسافة التي تقطعها البواخر بأكثر من 2700 ميل بحري، وبالتالي يقلل الوقت المستغرق للبواخر لتصل من الموردين الى المستوردين. لكنّ هذه الطريق يمكنها إما ان تقطع من خلال حدود روسيا باتجاه المحيط الهادي أو من خلال الخط الغربي والذي يمر بمحاذاة غرينلاند وعبر شواطئ كندا الشمالية ليصل إلى ألاسكا ومنها إلى المحيط الهادئ، أي أن الاستحواذ على غرينلاند والحديث عن كندا كولاية في الولايات المتحدة لا يخرج عن دائرة حروب الممرات.

القضية الثانية هي المعادن النادرة. وفي محاولتها للهيمنة على بعض هذه المعادن النادرة، والتي تعتبر كل من الصين وروسيا المزود الأكبر لها في العالم، وقعت الولايات المتحدة اتفاقية حصرية مع أوكرانيا لمدة 300 سنة بحيث تتمكن من السيطرة على كل المعادن النادرة في أوكرانيا. هذه الاتفاقية هدفها الأساسي هو خفض اعتماد الولايات المتحدة على استيراد المعادن، وخاصة الليثيوم والتيتانيوم، من الصين. الخطوة الثانية كانت من خلال المطالبة بالسيطرة على غرينلاند والتي تحتوي مخزوناً غير محدد من المعادن والتي لم يتم استخراجها ولا تعدينها بعد. والخطوة الثالثة كانت بفرض هيمنتها على أمريكا الجنوبية وبالأخص فنزويلا، والتي تمتلك بالإضافة للاحتياطي الهائل من النفط مخزوناً كبيراً من المعادن النادرة.

التفكير الاستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية يذهب إلى التركيز على نصف الكرة الأرضية الغربي، بحيث يتم الانسحاب التدريجي من الانتشار في كل العالم إلى الانتشار فقط ضمن نصف الكرة الأرضية الغربي. بهذا التفكير تعتقد الولايات المتحدة أنها ستتمكن ليس فقط من المحافظة على دورها "الريادي" في العالم، نظراً لما ستحققه من أرباح وثروات من خلال هيمنتها الكاملة على نصف الكرة الأرضية الغربي.

إلى الآن ما زالت للولايات المتحدة بعض القوة التي يمكنها أن تفرضها على العالم، ولكن هل ستنجح طويلاً؟ هل بالفعل يمكنها أن تفرض هيمنتها على نصف الكرة الأرضية الغربي وأن تخضِع كندا لتكون الولاية 51 وأن تقنع الدنمارك ببيع غرينلاند؟

التاريخ يقول لنا أن الامبراطوريات الآفلة تتخذ خطوات تعتقد أنها ستنقذها من الانهيار ولكنها في مسيرها تساعد على زيادة وتيرة الانهيار.

لنأخذ العوامل المحددة للاقتصاد التي ذكرتها أعلاه. في التطور التكنولوجي، فبالرغم من أن الكثير من الأسماء المهيمنة عالمياً ما زالت لشركات من الولايات المتحدة، إلا أن الحصة من التوزيع عالمياً تتفوق بها الصناعات التكنولوجية الصينية، أي أن الشركات الصينية تحصل على 30% من السوق بينما الشركات من الولايات المتحدة تحصل على 18% فقط، وبحسب الذكاء الصناعي فإن الصين تتفوق في 57 من أصل 64 صناعة تكنولوجية بما فيها الذكاء الصناعي والكمبيوترات الكوانتية والطاقة المتجددة والقطارات وغيرها.

أما على مستوى البحوث والتطوير ففي حين تضخ الصين بكل قوة في جامعاتها ومراكز أبحاثها نرى أن الإدارة الحالية في الولايات المتحدة تهجم على جامعاتها وتحد من قدراتها البحثية. وبالتالي نجد اليوم أن الصين، وبحسب مؤشر مجلة نيتشر، قد تفوقت على الولايات المتحدة في عدد الأبحاث العلمية ونوعيتها بارتفاع يزيد عن 17% بينما تم التراجع في الولايات المتحدة بنسبة 10%. وبالتأكيد هذا سينعكس مباشرة على التكنولوجيا وتطوراتها.

في مجال الطاقة، ما زالت الصين تتمكن من توفير مصادر للطاقة خارج هيمنة الولايات المتحدة، وعلى الرغم من إيقاف التدفق من فنزويلا بعد اختطاف الرئيس مادورو وإطباق الحصار على الدولة وعلى من يمكنهم التعامل معها، تمكنت الصين من عقد صفقات بديلة مع السعودية بالإضافة للتدفق المستمر من روسيا وإيران. وبناءً عليه، فقد يكون الهجوم المتوقع على إيران هدفه ليس دور إيران في المنطقة بمقدار دور إيران في تزويد النفط للصين. ولكن تحاول الصين جاهدة إيجاد بدائل للنفط من خلال تطوير تكنولوجيا تحتاج إلى طاقة أقل ومن خلال الجهد المكثف في تكنولوجيا الطاقة البديلة.

في مجال مصادر للمعادن النادرة، فالتفوق الصيني بيّن، ومحاولات الولايات المتحدة للهيمنة على مصادر بديلة هي محاولات يائسة لم توّلد إلا مزيداً من الحنق والغضب ضد هيمنة الولايات المتحدة على العالم، وحتى من قبل حلفائها، وما أدل من ذلك الخطاب الذي ألقاه رئيس الوزراء الكندي في مؤتمر دافوس، والذي أعلن فيه انتهاء النظام العالمي المبني على القانون (وكأن النظام العالمي كان مبنياً على القانون أساساً)، وأن النظام اليوم مبني على القوة (كونها بدأت تصل إليه)، وطالب بأن يكون هناك تحالف بين المستضعفين لمواجهة هيمنة الولايات المتحدة. فحلفاء الولايات المتحدة ينفضون من حولها.

الدول التي تهادن الآن بالرغم من معارضتها لهيمنة الولايات المتحدة ستدرك سريعاً أن الخط الوحيد لوقف الهيمنة ليس بالمهادنة، ولكن بالمواجهة، وستعود لترفع صوتها ضد الهيمنة والغطرسة. ولن تتمكن الولايات المتحدة من فرض ما تريد وهي في هذا الوضع المتراجع. ومع إعلان إدارة ترامب عن "مجلس السلام" والذي يمكن اعتباره تقويضاً مباشراً للقانون الدولي وللأمم المتحدة، تصبح احتمالات تشكل تحالف مناهض لتوجه الولايات المتحدة أكبر.

في حرب الممرات والطرق التجارية، نجد أن الصين ما زالت تسير بخطى ثابتة في توسيع خطوطها التجارية وخاصة البرية منها من خلال القطارات السريعة جداً (bullet trains) والتي تستطيع أن تقطع المسافة من الصين إلى إسبانيا خلال 12 يوماً. ويتم اليوم تطوير هذه القطارات لتتمكن من نقل كميات أكبر من القطارات السابقة (والتي تحمل 5000 طن) لتصل كما في القطار الذي أعلنت عنه الصين مؤخراً (في التاسع من كانون الثاني 2025) والذي يستطيع نقل 35000 طن مقترباً من الوزن الذي تنقله السفن والذي يصل إلى 50000 طن.

أما عن محاولات الولايات المتحدة للسيطرة على الخطوط البحرية فهذا يصطدم بالمعارضة الأوروبية لاستحواذ الولايات المتحدة الأمريكية على غرينلاند وبالمعارضة الكندية لاعتبار السير من خلال سواحلها بأنه مسير في مياه دولية، ورفضها لعروض الولايات المتحدة وبداية شعورها بمشاعر الدول التي ترفض الهيمنة.

وبالنسبة لما كان معروفاً عن الولايات المتحدة بأنها تسيطر على خطوط النقل البحرية نجد أن هذه الهيمنة تم اختراقها وبأبسط الإمكانيات خلال حرب الإسناد اليمنية، والتي أثبتت أن تعطيل خطوط النقل البحرية سيكون أبسط بكثير مما كان يعتقد سابقاً وعلى الأخص مع الصواريخ والمسيرات منخفضة الثمن عالية الدقة وبعيدة المدى.

يبقى السلاح الأقوى بيد الولايات المتحدة هو هيمنة الدولار على الاقتصاد العالمي، وهذا ما يتم الآن تفكيكه لبنة بعد لبنة، فبعد انتشار الكثير من التعاملات التجارية بالعملات المحلية للدول وحتى من قبل الكثير من حلفاء الولايات المتحدة التقليديين، وصلت الضربة الأخيرة من خلال إعلان دول البركس بإشهار خط تحويل عالمي جديد بديلاً لنظام (سوفت)، والذي أعلنت عنه البرازيل من خلال تطوير نظام الدفع (بكس) ليتمكن من التحويل عالمياً من دون الحاجة للمرور بالبنوك في الولايات المتحدة، وهو ما نتج عنه غضب شديد من قبل إدارة ترامب على البرازيل ونظامها البنكي.

إذاً، وعلى الرغم من أن هيمنة الدولار ما زالت طاغية في التعاملات التجارية العالمية، إلا أنها في تراجع مستمر، وهو ما يبرر الارتفاع غير العادي لسعر الذهب، فالدول بدأت ومنذ سنوات تكدس الذهب في بنوكها المركزية وذلك بعد أن بدأت تستشعر تراجع هيمنة الدولار.

أما عن القوة العسكرية، فالولايات المتحدة ما زالت رسمياً الدولة الأقوى عسكرياً، لكنْ، وباعتراف الكثير من المحللين فهي تعاني من تراجع في الكثير من المجالات التقليدية، وقد يكون تفوقها الأساسي اليوم في الحرب الالكترونية، لكنّ الصين تقترب من إغلاق الفجوة العسكرية بين البلدين بوجود الدعم للصناعة العسكرية وللتطوير التكنولوجي فيها. وحتى لو تم التسليم بالتفوق العسكري للولايات المتحدة، يبقى التفوق العددي للجنود النظاميين في الجيش لصالح الصين من دون منازع بتعداد جيش نظامي يتعدى ثلاثة ملايين، وتضخم جديد هائل للقوة البحرية بحيث أصبح الأسطول الصيني يقارب ضعفي أسطول الولايات المتحدة، مع وجود سفن حديثة الصنع، بعد 2010، في 70% من الأسطول الصيني، وطاقة تصنيعية تفوق الطاقة التصنيعية للسفن في الولايات المتحدة بما يقارب 200 مرة.

وإذا ما أخذنا العامل الديموغرافي والذي تتفوق به الصين بلا منازع. الصين قد لا تكون جاهزة للمواجهة العسكرية المباشرة، أو قد لا تكون راغبة بهذه المواجهة، لأنها تدرك أن الوقت كفيل بتفكك منظومة الهيمنة الحالية، وأن الإجراءات التي تتخذها في مجال التصنيع والتكنولوجيا كفيلة بأن تضعها في موقع القيادة العالمية، ولكنها أيضاً قد تدفع للمواجهة إذا استمرت الولايات المتحدة في محاولاتها لخنقها نفطياً. وهذا الاحتمال ضعيف، ولكنه ممكن.

هناك سيناريو آخر ينبع من أحلام الاستراتيجية الأمنية الجديدة للولايات المتحدة والمتمثل بأن يتم الاتفاق مع الصين على أن تحصر انتشارها في العالم القديم وتترك نصف الكرة الأرضية الغربي لهيمنة الولايات المتحدة. واستبعد هذا السيناريو لأن الصين تدرك أن إمكانية الولايات المتحدة لتحقيق هذه الاستراتيجية أقرب إلى المستحيل. هذا بالإضافة إلى أن الصين تفضل نظام التعدد القطبي عن الانفراد الكلي بالهيمنة السياسية، فهيمنتها على الصناعة العالمية كافية لفرض أجنداتها على حلفائها.

في الخاتمة، لا بد من التنبيه إلى أن الهند هي من الدول الصاعدة بقوة في الكثير من المجالات ولكنها إلى اليوم لا تشكل عاملاً يمكنه أن يغير التوازنات المذكورة هنا، وبناءً عليه لم يتم مناقشة تأثيرها المستقبلي والذي قد يكون ضاغطاً بعد عشر سنوات وليس قبل ذلك.

ومع أن هذه التغيرات الهائلة في السياسة الدولية تدفع باتجاه الكثير من التكهنات التي لا تتوافق مع النظريات السائدة في الجغرافيا السياسية، ولكن بالعودة إلى العوامل الأساسية المؤثرة في تعريف قوة الدول وقدرتها على التحرك نجد أن محاولات الولايات المتحدة هي محاولات يائسة وفاشلة ولن يكتب لها النجاح بالرغم من كل الجعجعة التي نسمعها حولنا.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 100
01 شباط 2026

مداخلة بشأن الهوية القومية

ناجي علوش

(مداخلة في ندوة عقدها المجلس القومي للثقافة العربي في أغادير، في المغرب، ونشرت في مجلة "الوحدة" في العدد 59/58، يوليو / أغسطس 1989)

أولاً، الهوية القومية العربية والواقع:

أرى أننا حين نبحث عن الهوية القومية، يجب أن نبحث عنها في الواقع العربي عينه، لا في التاريخ أو الثقافة فقط.

وإذا كانت الهوية القومية العربية واضحة في التاريخ العربي والثقافة العربية، فإنها أيضاً واضحة في الواقع العربي تماماً، ولذلك نلتقي هنا، في أغادير على المحيط، من كل أقطار الوطن العربي، ومن الاتجاهات السياسية والفكرية المختلفة، لنناقش قضايا واحدة، ولا يغيّر من الأمر شيئاً أننا نناقش هذه القضايا من زوايا مختلفة.

وإذا كانت الهوية القومية حصيلة تطور تاريخي، فإن هذه الحصيلة موجودة بسماتها المشتركة، وبتناقضاتها أيضاً، في الواقع العربي المعاصر.

إذاً نحن عندما نتحدث عن الهوية القومية، لا نتحدث عن "رومانس" تاريخي فقط، بل نتحدث عن واقع عياني، وعن أمة موجودة لها هويتها، مهما كانت درجة تبلور الوعي بهذه الهوية.

ثانياً، الهوية بين الثبات والتطور:

الهوية ليست سمة جامدة تظهر بشكلٍ واحدٍ في كل أدوار التاريخ، لأن الهوية مرتبطة بحياة الأمة. لذلك، فإن هذه الهوية تتطور مع التطور السياسي والاجتماعي، وتأخذ الأشكال والجواهر التي يفرضها هذا التطور.

الهوية إذاً حصيلة تطور تاريخي واجتماعي، وتعبير عن وضع راهن دائماً. من هنا، فإن الذين ينظرون إلى الهوية باعتبارها تاريخاً يفقدونها قوتها الواقعية الراهنة، كما أن الذين يرونها بلا تاريخ يرون فيها حالة راهنة فحسب. فهنا يختلط معنى القومية Nationalism بمعنى الجنسية Nationality. الأولى ترتبط بالتطور التاريخي، والثانية ترتبط بالحدود السياسية والقانونية الراهنة.

والقومية حين تتحول إلى جنسية، أي حين تحقق الأمة دولتها، يتطابق المعنيان. وتضم الدولة في كثير من الأحيان أقليات قومية ودينية ومذهبية وأشخاصاً من قوميات مختلفة، وهذا لا يغير من طبيعة الهوية القومية، بل يغنيها ويدخِل فيها إشكالات هوية، كبيرة أحياناً، ومحدودة أحياناً.

لكن الهوية القومية التي تحمل سمات التجربة التاريخية تحمل أيضاً سماته الواقعية والراهنة. وهي لذلك تنمو نمواً تاريخياً، فتغتني وتتسع وتتجذر وتتحول وتتصارع داخلياً وخارجياً وتتفاعل مع الشعوب والثقافات، وتنغلق أحياناً بسبب هجومٍ أو ضعف، وتنفتح أحياناً بسبب قوة أو ضعف. وهي لا تتوقف أبداً عن هذه العملية، كالشجرة التي تتغذى من الأرض والهواء.

ثالثاً، مخاطر تواجه الهوية القومية:

إن الهوية القومية تواجه مخاطر متعددة أبرزها الهجوم الإمبريالي من الخارج، ومحاولات التفتيت من الداخل، وترتبط هذه المساعي معاً. وتقوم ضمن هذا الإطار أو خارجه محاولات للتأكيد على ما يلي:

1 – تكريس الديني والطائفي على حساب القومي.

2 – تكريس الآني على حساب القومي.

3 – تكريس العالمي على حساب القومي. والعالمي هنا بمعنى الكوسموبوليتي، وليس الأممي. وتختلط هنا الطبقية المتجاهلة للإطار القومي بالكوسموبوليتية.

4 – تكريس الدولي على حساب القومي.

إن هذه المخاطر اليوم حقيقية، وتتطلب التشديد على أهمية الهوية وتنمية الوعي بها، والتأكيد على القومي على حساب الطائفي والديني والكوسموبوليتي.

رابعاً، الهوية والإبداع:

إن الإبداع عمل جماعي، بمعنى أنه يعبر عن إرادة الفرد باعتباره جزءاً من مجتمع. الكاتب والفنان والمفكر يكتب أو يرسم أو يفكر عبر تجربة مجتمع، وضمن إطار ذلك المجتمع. بالتالي، فإن لكل إبداع حتى لو أخذ بعداً عالمياً، طابعه القومي. وهكذا يمكن أن يُفهَم أفلاطون والمتنبي وابن رشد وشكسبير وروسو ولوك وماركس وراسل...

والإبداع إنتاج، لذلك فإن المجتمع المنتج مجتمع مبدع: تطور الزراعة والصناعة وخوض الحرب الجدية واجتياز الصحارى والبحار يرافقه الإبداع. أما الخمول فيقود إلى الاستهلاك غير المنتج. والمجتمع المستهلك مقلِّد يردد ما يسمع، أو يردد التاريخي ويدافع عن ثقافته الماضية ويرفض الإبداع. لذلك، فإن إبداع الشعوب التابعة الخاضعة يبدأ من المقاومة.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 100
01 شباط 2026

العرب كمخزون استراتيجي للأمم المستباحة

فارس سعادة

تنتشر بين العرب عبارات المهانة والسخرية من أنفسهم وتاريخهم ورموزهم منذ ما لا يقل عن مئة عام، تحمل هذه الظاهرة معها أمراضاً مختلفة وانعكاسات لظاهرة التخلف التي يرتبط بها المواطن العربي منذ فشل تجربة القائد محمد علي باشا، وزادت حدتها بعد التقسيم الاستعماري للوطن العربي واحتلال فلسطين عام 1948 وهزيمة الجيوش العربية خلال ما يعرف بـ "النكبة"!

نستطيع وصف ظاهرة شتم الذات وسبها والتقليل من الإنجازات والتضخيم من العوائق وإلصاق كل شوائب الدنيا بالشخصية العربية بظاهرة قديمة حديثة تحولت إلى متلازمة حادة أنتجت تيارات شعبية كاملة مهزومة ضعيفة حزينة لا يمكن الاتكال عليها في عملية التغيير والانقلاب الاجتماعي. وقد أثبت الخريف العربي دور هذه الظاهرة من خلال انعكاسات مختلفة اجتماعياً وسياسياً أولها اندفاع مئات الآلاف من الشباب العربي للتطوع في صفوف الجماعات الإرهابية المسلحة للإسلام السياسي المدعومة غربياً بشكل مفضوح وخليجياً بشكل علني لقتال مواطنين عرب آخرين، ومن جهة أخرى تحول عشرات الآلاف من "الثوريين" إلى أدوات ليبرالية ممولة أجنبياً أو خليجياً ليصبحوا أدوات رخيصة لإسقاط منظومات الدول العربية وتشويه صورة الجيوش العربية في عقول المواطنين العرب. وبالرغم من وضوح جزء كبير من الصورة في سورية وليبيا وفي لبنان فقد بقيت هذه الصورة البشعة حول الواقع في عقول أغلب المواطنين العرب.

لا نستطيع القول بطهارة النظام العربي الرسمي سياسياً أو اقتصادياً أو حتى اجتماعياً، فمشاكل الأنظمة القومية في العراق وسورية وليبيا موجودة وجزء كبير منها حقيقي، إلا أنها أنظمة وطنية بشكل أو آخر ووقفت في وجه الإمبريالية الغربية من جهة وفي وجه الأطماع الإقليمية "تركيا والخليج العربي" من جهة أخرى! ولم تكن أنظمة عميلة أو خائنة لشعبها وأرضها في المقارنة بأنظمة الخداع العربي في الخليج المستباح غربياً، فالأولى هنا الثورة على نظام البترودولار الذي لا يزال يبيع الوطن العربي بالقطعة وبالمجان وتسبب في حرق بلاد الشام عن بكرة أبيها وتفرج على اغتصاب نساء الشام وفلسطين وطرابلس الغرب والخرطوم في ظل صمت شعبي رهيب ومخيف حقيقةً.

في ظل الحقائق الاجتماعية والجماهيرية التي عكستها ردة الفعل الضعيفة والمخيفة للشارع العربي بعد معركة الطوفان التاريخية، عاد سؤال "ما العمل؟" ليطرق أبواب العقول العربية الطاهرة من المحيط إلى الخليج، فكانت الممارسة أسبق من

النظرية، فكانت العمليات الفدائية ضـد العدو في الداخل المحتل أو في دول الطوق نتاج هذا الرفض الجذري للواقع بالرغم من فداحة الثمن الذي دفعه الشـباب العربي الذي نفذ الفكرة وتحول إلى خنجر في صـدور الأعداء. أما على المسـتوى الجماهيري الواســع فقد كانت المقاطعة الاقتصــادية والثقافية وغيرها من أنواع المقاطعة ردة فعل طبيعية لحرب الإبادة التي لا تزال مستمرة ضد أبناء شعبنا العربي في غزة والضفة الغربية كذلك.

شــكل التفاوت في الحراك الثوري والجماهيري بين الأقطار العربية تســاؤلات عدة عند العقول الثورية، ففي الجزائر كان الحراك خجولاً ومعيباً ووصـمة عار في تاريخ شـعبنا العربي الجزائري بالرغم من "ثورية نظامه" المفترضـة. في المقابل، شـكّل شـعبنا العربي في المغرب مثال الكرامة والثورة في أعداد المتظاهرين وانخراط الشـباب وكل أطياف الشـعب العربي المغربي في الحراك المسـاند لفلسـطين والمناهض لتطبيع نظامه، وكذلك اليمن طبعاً الذي تفوق شـعبياً في تظاهرات مليونية حاشدة أسبوعياً.

أما دول الخليج العربي فقد كانت مثالاً واضـحاً على عمليات غسل الأدمغة ليبرالياً. ففي هذه الدول لم نرَ حركة مقاطعة تذكر، ما عدا في الشــارع البحريني، وفي عُمان، وبعض الشــيء في الكويت، بل على العكس نرى حزاماً مخترقاً مضــاداً للعروبة ولفلسطين، بل ومسانداً للاحتلال الصهيوني. وبكل تأكيد يمكن ربط كل ما ذكر بالنظام الرسمي العربي من جهة، وبالمعارضة السياسية الداخلية من جهة أخرى.

تاريخياً، تعرض العرب لأكبر ضغط إمبريالي منذ إبحار أساطيل الإسبان والبرتغاليين على سواحل عُمان وصولاً إلى أساطيل الإنجليز والأمريكان في خليجنا العربي، وبالرغم من كل هذا الضغط الإمبريالي أثبت الإنسان العربي قدرة كبيرة على الرفض والمقاومة. هذا ليس خطاباً تشــجيعياً أو خطاباً معنوياً، بل على العكس تماماً هو تأكيد لحقائق وتثبيت لحق في الفخر من أجل العمل على تطويره وتأطيره شعبياً.

نسـتذكر هنا ثورة البشـارات العربية الأندلسـية في جبال غرناطة والتي اشـتعلت رداً على المظالم والهزيمة التي تعرض لها العرب في الأندلس. قامت ثورة البشـارات على أنقاض ثورات أصـغر منها وحراكات شـعبية في غرناطة وقبلها في فالنسـيا وأراغون وغيرها من المدن الأندلسـية، وفي رأي الكاتب الشـخصـي كانت هذه الثورة آخر الثورات العربية الخالصـة ما قبل محاولة القائد محمد علي باشـا الذي لم ينل حق قدره عربياً بعد. يعود سبب فشل ثورة البشـارات بشكل رئيسـي إلى قلة الدعم العربي والإسـلامي لها بالرغم من تزامن هذه الثورة مع أوج قوة الدولة العثمانية سيئة الذكر وتواجد أسـاطيل العثمانيين قرب شواطئ الأندلس!

نقفز بالتاريخ بضـعة قرون وصـولاً إلى يومنا هذا، ونقارن دول أمريكا اللاتينية الفقيرة والتي تتعرض لضـغط إمبريالي كبير وقديم، ونقارن بردة الفعل الثورية بينهم وبيننا نحن العرب على المستويين الشعبي والنخبوي، بالرغم من ما تعرض له العرب من تدخلات مباشـرة عسكرية ودموية من بلاد الشـام إبان بداية القرن العشـرين وصـولاً إلى حرب الإبادة في غزة ولبنان فقد بقيت المقاومة مسلحة وشرسـة ولم تسلم يوماً سلاحها بل وقدمت كل قادتها حرفياً شـهداء إضـافة إلى صـمود الأنظمة الوطنية في العراق وليبيا وسورية وقتالها للغرب والزومبي الإسلاموي عشرات السنين من غير تسليم أو مهادنة، مما تسبب في دفع

أثمان لا يمكن تعويضـها: مئات الآلاف من الشـهداء ومليارات الدنانير وآلاف السـنين من التاريخ دمرت وأحرقت أو سـرقت عبر الأراضي السورية المحتلة في جنوب تركيا الحالي!

شـكل اختطاف الرئيس الثوري مادورو وزوجته وما نتج بعدها من ردات فعل لاتينية شـعبية ونخبوية صـدمة في الحقيقة لكل من يعتبر نفسـه من دول الجنوب والدول المسـتقلة، فردة الفعل الشـعبية الفنزويلية معيبة في الحقيقة، بل ومتآمرة على شـخص الرئيس وحرمه وتاريخ فنزويلا الثوري خلال الأربعين عام الماضية!

من كولومبيا إلى البرازيل أثبتت هذه الدول ضعفها وعدم قدرتها على الرد والمقاومة وسجلت شعوبها انتكاسة ثورية ستسجل تاريخياً كهزيمة وطنية وقومية لهم في وجه الإمبريالية، فخطابات وتصـريحات الرئيس البرازيلي مثلاً تشير إلى ضـعفه وعدم قدرته على المقاومة أو ربما على تحول فكري أو تغير في الموقف السياسي تجاه الإمبريالية؟

في المقابل، سـجل البعث العراقي سـابقاً مقاومة تاريخية من قبل قياداته وأنصـاره العرب في العراق وقدموا أنفسـهم وأولادهم شهداء على مذبح العروبة والمقاومة والرفض العربي الجذري حتى النخاع بعيداً عن مواقفك السياسية من هذا الحزب. أما في ليبيا فقد سـجل الشـهيد القائد معمر القذافي وأبناؤه القادة موقفاً تاريخياً بالرفض وتقديم أرواحهم رفقة أولاده الصـغار فداء ليبيا والمقاومة لكل جيوش الناتو والزومبي الإسلاموي.

أما في الجمهورية العربية السورية فقد سجل الجيش العربي السوري 14 عاماً متواصلة من المقاومة وتقديم مئات الآلاف من الشـهداء في وجه الغرب وتركيا والخليج البترودولاري وأنظمة الاستخذاء "العربية". أما قادة سورية فقد رفضـوا الانصـياع وبيع دماء الشهداء بعيداً عن الاتفاق أو الاختلاف معهم سياسياً فقد قدموا الكثير لسورية العرب ورحلوا من غير أن يسلموا ولو شبراً واحداً إلا بعد قتال عنيف قدموا فيه الشهداء من جنود وقادة.

أما في لبنان وفلسطين، فالموضوع يختلف تماماً بالنظر إلى نوعية القيادة وموقعها سياسياً فنحن هنا نتكلم عن جماعات خارج النظام الرسمي العربي، أحزاب مقاومة حتى النخاغ فاقت في مقاومتها كل مقاومة عالمية من فيتنام إلى كوبا ومن الأندلس إلى قاهرة المعز، مقاومة قدمت كل شيء حرفياً ولم تتنازل بالرغم من تكالب كل العالم عليها وغياب معين لها.

ما حدث في فلسطين أولاً كان نتاجاً تاريخياً لموقف الشعب الفلسطيني الرافض للاحتلال بكليته وواقعه، وبسبب الواقع الصعب الذي خلقه الاحتلال من جهة والتآمر العالمي والعربي عليها من جهة أخرى، فسياسياً نستطيع تحديد الموقف الدولي المساند للمقاومة ببضع دول تعد على أصابع اليد الواحدة على رأسها إيران! أما قيادة المقاومة في غزة فقد كانت قد أخذت قراراً بالمقاومة حتى الرمق الأخير لوجود عدة إشارات تعكس ذلك، أولها كان خطاب القائد التاريخي محمد الضيف الشهيد الكبير على مذبح تحرير فلسطين من بحرها إلى نهرها. أعلن الشهيد الضيف النفير العام للأمة العربية أولاً والأمة الإسلامية ثانياً "إن صحة تسمية أمة إسلامية" وبالرغم من إعلان النفير "وهو من أكبر المصطلحات إسلامياً" إلا أن الاستجابة كانت معدومة إلا من قبل المقاومة اللبنانية، وأنصار الله في اليمن، حكام اليمن الشرعيين، بشكل مباشر ودموي من أول يوم للحرب.

أسباب دخول المقاومة اللبنانية واليمنيين في خضم هذه الحرب بشكل عنيف ودموي يعود إلى عدة أسباب سياسية وجغرافية سياسية وواقعية وأيضاً أيديولوجية واضحة. وقد دفعوا أثماناً كبيرة لم تدفعها الأنظمة الرسمية العربية الوطنية بالرغم من تضحياتها، وهذا إن دل يدل على أن الانخراط في النظام الرسمي العربي يدفع الفكر الثوري إلى الخلف في سبيل مواءمة الواقع السياسي العفن، ويعزز فكرة الاستقلال عن النظام الرسمي العربي في حال أرادت جماعة ما المقاومة من غير قيود سياسية أو شعبية لعدم تحمل تكاليف السلطة الباهظة على شعبنا وأرضنا وتاريخنا، وربما في ظل الواقع الحالي على وجودنا كشعب عربي كبير.

في هذا الصدد نشدد على أن ما حدث في غزة وما قدمته المقاومة في غزة والشعب العربي في غزة كذلك المقاومة في لبنان وحاضنتها الشعبية فاق كل التضحيات التي قدمها الشعب العربي من المحيط إلى الخليج، وسجلت نفسها في السجل التاريخي المشرف للأمة العربية، وحرقت أوراق الكثير من دول الجنوب العالمي كدول ثورية، وأنجزت ما لم تنجزه عقودٌ من الرفض والمقاومة الناعمة في العالم. ما حدث خلال الأعوام الماضية حرّك العالم والإنسان العالمي وثبّت موقع المقاومة كموقع متقدم لكل الشعوب المظلومة وأزاح منظومات الغرب الفكرية أو المبنية على المركزية الغربية من فكر إدوارد سعيد وصولاً إلى فكر عزمي بشارة!

ولا تزال معادلة الفكر والممارسة ووجوب الالتزام الثوري ممارسةً يشكل يومي تثبت صحتها من داخل خنادق خان يونس وصولاً إلى أنفاق جنوب لبنان وليس انتهاءً بسواحل اليمن. بالتالي تعود معادلة العنف المضاد أساساً للمقاومة ولتحقيق النتائج السياسية والعسكرية من غير النظر إلى حلول أخرى كحلول رئيسية، فالعنف بحسب الشهيد فانون هو الحل الأمثل والأعدل والأقل تكلفة على الشعوب المقهورة والمعذبة. وفي هذا الصدد سجل الشعب العربي على اختلاف أيديولوجياته أنه المخزون الاستراتيجي للمقاومة عالمياً وأنه الدافع الأكبر لأغلى الأثمان.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 100
01 شباط 2026

ثمن الغياب: المشروع القومي العربي – دولة الوحدة العربية

بشار شخاترة

في مرحلة من أصعب وأكثر مراحل التاريخ البشري تحدياً لوجود الإنسان ولكرامته ولقيمه ولحقه في وطنه، نشهد اليوم حالة من الاستكبار من قبل إمبراطورية الشر والطغيان ومن قِبَل من نصب نفسه فرعون هذا العصر (ترامب) وإمبراطوريته المتحدة الأمريكية.

لعل العنوان يوحي بشيء مما أود أن اقوله في هذا المقال. فما معنى الحضور إذا كنت سلعةً أو بيدقاً أو مروجاً لسلعة عند الفرعون؟ وما معنى الغياب إذا لم تكن شيئاً مذكوراً، لا يلتفت لغيابك أو حضورك أحد، أو أنّ غيابك أو حضورك لا يحدث فرقاً.

منذ تعالت القبعات الحمراء الترامبية مؤذنةً بالفوز في الانتخابات الأمريكية الديكورية حقيقةً – لأنها حرمت الملايين من الناخبين من حق الاختيار الجاد والمفاضلة كونها بين خيارين منذ قرنين ويزيد – وقد آذنتنا أمريكا بعالم مختلف أشد قسوةً وظلماً وظلمةً مما سبق من تاريخها البشع، فغدونا أمام عالم بدأت ملامحه بالتغير المضطرد، ولم يكد يفلت أحد من جنون القوة الأمريكية خلال عام من رئاسته، حتى حلفاؤه التاريخيون أصبحوا أكثر توجساً وخوفاً من غيرهم نظراً لما يلقيه من تهديدات تضرب عصب العلاقة التي جمعت أوروبا الغربية بالولايات المتحدة منذ الحرب العامية الثانية، فكأني بالغرب الأوروبي اليوم يقف على أعتاب العام نهاية الثلاثينات من القرن الماضي حين أتى هتلر بالانتخابات الحرة وقفز إلى السلطة وبدأ يبتلع الدول الأوروبية والممالك الواحدة بعد الأخرى.

إذا كان هكذا حال العالم المتقدم والقوي مع ولايات ترامب المتحدة، فما حال العالم المسحوق بالفقر والتخلف والتمزق والأمراض والجهل ومختلف أنواع العلل الاجتماعية وغير الاجتماعية!

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 100 ـــــدد
01 شباط 2026

الحقيقة أن الداعي للكتابة تحت عنوان الغياب ومنطلقي منه وإليه هو ما جرى للرئيس نيكولاس مادورو، رئيس دولة يختطف من قلب عاصمته بعد أن اشترت أمريكا ذمم حراسه وبعض مساعديه، ليخرج القرصان مختالاً بفعلته لأنه لم يقتل أي جندي أمريكي في تلك العملية، ولا يرى غضاضة فيما فعله، ما يعنيني هو ماذا تركت هذه الجريمة في نفوس المهمشين والباحثين عن عالم يستطيعون العيش فيه بلا أمريكا وبلا توابعها من مراكز إمبريالية في أوروبا. ما يعنينا أننا بتنا كل يوم في نكسة وكل يوم هزيمة وبتنا نرى كل يوم استكباراً وغطرسة تجاوزت ما كنا نعرفه من قبل. ففيما سبق كان هناك بارقة تضيء عتمة الاستبداد، ونصرٌ صغيرٌ هناك، وصعودٌ في مكان ما من عالم المهمشين، يطلع علينا تشافيز وحسن نصر الله وبشار الأسد والسنوار والخامنئي وعبد الملك الحوثي، وتسمع صراحة القذافي وزمجرة صدام وغيرهم ممن وقفوا يوماً في وجه الطغيان، لنقف على عتبة الوعي وندق بابه سائلين: ماذا جرى ويجري؟

ليجيب رجع الصدى من غياهب اللاوعي: انتهت اللعبة ولم يبقَ لترامب إلا أن يعلن نفسه إلهاً (أنا ربكم الأعلى)، كلا وحاشا وما ينبغي له ولا لولايته، وهذا وإن حدث فإنه من علامات الاحتضار لا القوة.

إن ما جرى للرئيس مادورو كاد الغياب أن يكون حاضراً فيه، وكاد الصمت المطبق أن ينطق، من يا أمم الأرض ينهض للعدالة؟ أين من ينهض لمن سحقتهم دبابات الصهاينة وقضى عليهم الجوع وماتوا من شدة البرد؟ أين سيف العدالة الذي لا بد أن ينتصف ولا بد أن يظهر، إنه سيف الحق الغائب فعلاً والحاضر والماثل والشاهد على صدمة الغياب في آنٍ معاً، إنه دولة العدل التي لم تنشأ قبلها ولا بعدها، إنها دولة العروبة التي ما كانت إلا سيفاً للعدل ودرعاً للمظلوم، إنها دولة الرسالة، رسالة العدل والحق التي نذرت نفسها له.

إن عالمنا اليوم لأشد ما يشكو منه هو غياب قوة تدافع عن الحق وتنصف المظلوم من جور رأس المال ومن جور أصحاب اللوثات العقائدية ومن جور المجانين الذين باتوا يحكمون العالم، أقولها وكلي ثقة بها عندما ترجلت دولة العدل دولة الرسالة دولة العروبة عن صهوة الكون ترجل معها العدل ولم ينتصف مظلوم وأهدرت كرامة الأمم باسم أكاذيب حقوق الإنسان والديموقراطية.

المؤسف أن من يملك المقدرة على مناطحة إمبراطورية الطغيان يفتقد إلى الدافع وإلى الرسالة وإلى الإحساس بأن هذا العالم ليس مالاً وتجارةً ومراكمة الرساميل. المؤسف أن الصين بكل ثقلها لا تريد، حتى لا نقول لا تجرؤ، الوقوف في وجه الطغيان مع أنه سيصلها والغد قريب. أما القوة الثانية فهي روسيا التي قايضت التاريخ والجغرافيا السياسية بالرضا الأمريكي الذي لن يطول. من كان غير مشروعنا يملك الحافز والدافع والعقيدة والجرأة، جميعها معاً، لنصرة النفس ولنصرة الشعوب المقهورة.

وحتى لا نبقى في رتابة الكلمة وتنميقها وفي مرتبة الغيبيات نطرح الأمثلة الحية على منهج مشروع أمتنا وعلى عقيدتنا نحن العرب، وحتى لا يبقى القول في إطار المكرر من السرد من صفات العرب في إغاثة الملهوف وحماية الجار والحمية، نستذكر الراحل عبد الناصر الذي اختط دوراً عالمياً لمصر باسم الأمة العربية والعروبة، حينما كانت القاهرة عاصمة التحرر العالمي ومقصد الثوار في وجه الطغيان الاستعماري والاستكبار الغربي.

لم يكن عبد الناصر إمبراطوراً، ولم تكن مصر إمبراطورية، إنما امتلك مشروعاً فقط تبعته جماهير الأمة من محيطها إلى خليجها، وكان هذا كافياً ليناطح إمبراطوريات الشر، فمحاربة الاستبداد والطغيان والثورة ضد المحتل فكرة قبل أن تكون فعلاً، ويقيناً لا يساوره شك بعدالة القضية، حيث آمن بها عبد الناصر والتي يجب أن تكون أساساً لكل طالب حرية، فقوة الصين اليوم وروسيا معها لم تجرؤ أن تفعل أي شيء مما فعله ناصر القومي العربي، صاحب المشروع وصاحب الرسالة، هذا هو الفارق بين من يحمل الرسالة ويقاتل من أجلها وبين غيره.

هذا هو الفارق بين من أبى ويأبى الظلم، ولو كان ضعيفاً فسلاح الحق قوة، لن تكون قوياً إن لم تتسلح به قبل السعي للقوة، فقوة من غير الحق ضعف لا محالة، وقوة من غير رسالة إما شرٌ مستطير كإمبراطورية الشر أو هوانٌ مستطاب باسم الرخاء والنمو الاقتصادي كالصين اليوم.

لا شيء في عالم اليوم أكثر حضوراً من غيابنا كأمة عربية، غيابنا عن دورنا، غيابنا جعل ميزان الكون المائل، غيابنا عن قول " اللا " لا عربية مدوية، فـ "اللا" في عرفنا فلسفة من أقدم العصور مذ قال عمرو بن كلثوم ومن قبله ومن بعده، أنا لا أبيع الوهم وحال أمتي على ما هي عليه اليوم، ولكن أبيع الأمل بما نمتلك من عناصر لن تملكها أمة غيرنا على وجه هذه البسيطة، فنحن أهل الحق ونحن رعاته ونحن وإن تراجعنا وفعل حكام بلادنا ما يفعلونه بنا وبأمتنا، لكنْ لم ولن يسلبونا دعوة الحق التي نرضعه من أمهاتنا ونرثه عن آبائنا وأجدادنا مهما بدا لكم من سوادٍ ووحشةٍ، فإذا لم نكن نحن فمن يكون لهذا المهمة، من عليه أن يعدل ميزان الكون ومن يجرؤ؟

فقط انظروا إلى غزة إن لم تقنعوا بالقول، فالشاهد على صدق القول ماثل أمامكم، لم يركع شعب غزة ولم يرحل، ولم ينقلب على المقاومة برغم كل الألم، برغم كل ما جرى ويعجز البيان عن وصفه، حتى ليخيل أن الغزيين إن رحلوا حملوا غزة معهم وتركوا مكانها فراغاً. نحن ذهب أصفر وأصالة المعدن وإن علا عليه غبار فإنه لن يغير الجوهر. هل ترون أحداً اليوم يقارع إمبراطورية الشر وأبناء القردة غير هذه الأمة في غزة وفي اليمن وفي لبنان؟

إذا كانت قسوة الغياب على أمم الأرض المقهورة هكذا فما بالها علينا ونحن أولى بحضور مشروعنا وحضور أمتنا، يا قومنا، يا أمتنا، يا عروبتنا، غيابكم لا شيء إن حضرتم، حضوركم عدل وعدلكم قوة وقوتكم بأس على كل ظالم ورحمة لكل مظلوم، ونحن أمة رسالتها العدل ورايتها الحق فإن تخلينا عنها فقدنا ذاتنا وذهبنا نهباً لكل ناهب وخسرنا وجودنا وفقدنا احترامنا لذاتنا، فهناك اليوم من يحرض على هذا النهج الذي لم يبقَ لدينا سواه وعنوانٌ من عناوينه اليوم هو المقاومة، فالحذر أن نشتري وهم السلام بقسوة الحق وثقل الحمل، فرغم كل شيء سنبقى وسنستمر وإما أن نبيع ذاتنا حين نبيع رسالة الحق التي ربينا عليها، حين نستبدل " لا " بكرامة بنعم الذل والخنوع، هنا تغيب شمس مشروعنا وهنا يولد ليلٌ تنام فيه أرواح شهدائنا إلى غير رجعة وتموت في حلكة الليل البهيم أحلام أطفالنا الذين سرقتهم منا آلة القتل، وتمسي لياليا بلا ذكريات، وأيامنا باهتة تجري خلف لقمة من الذل يرميها اللئام لنا من فتات موائدهم، من أجل العيش، فبئس العيش إن رضينا بذلك، وبئس الحياة إن لم يكن لنا فيها حلم وبئس الأحلام التي لا نرسم لها مشروعاً.

غياب مشروعنا وغياب وحدتنا هي الحقيقة الحاضرة في حياتنا، وإن كان البعض ينكرها أو لا يريدها أو يعاديها. ولنعلم أن الثمن غالٍ جداً الذي ندفعه من دمنا وكرامتنا وحريتنا لغياب دولتنا العربية الواحدة، وإن التضحية وإن بدت كبير فهي أقل كلفةً بكثير مما ندفعه اليوم، فلم تكن " لا " عبد الناصر مكلفة على مصر أكثر من " نعم" الهوان الساداتية، فـ " اللا " فلسفة لا تقال اعتباطاً ولا يدرك حقها إلا من كان أهلاً لها، ولا يدرك هذا الحق من لم تدرك نفسه طعم الكرامة ومرارة الظلم.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 100
01 شباط 2026

البوصلة الأمريكية والطائفون حول البيت الأبيض

كريمة الروبي

أيها الجند

بوصلة لا تشير إلى القدس مشبوهة

حطموها على قحف أصحابها

اعتمدوا القلب

فالقلب يرف مهما الرياح الدنيئة سيئة جارفة

"مظفر النواب"

كان مظفر النواب -رحمه الله - صادقاً ومخلصاً حين صاح يوماً بأن البوصلة التي لا تشير إلى القدس مشبوهة، ولكنه لو كان حاضراً بيننا اليوم لأدرك أن القدس باتت مجالاً للنفاق والمتاجرة، وباتت كل البوصلات تشير إليها لا لتحريرها بل للمتاجرة بها، وتحقيق غايات العدو في تدمير الأمة حتى لا تقوى يوماً على تحرير القدس.

البوصلة الصحيحة تشير في اتجاه معاداة الولايات المتحدة، فما الفائدة من تبني قضية عادلة كقضية تحرير القدس وفلسطين، وفي ذات الوقت التماهي مع المخططات الأمريكية لتقويض أية قوة تحاول مقاومة الكيان؟ هذا يعني أن تبني القضية ليس خالصاً لوجه الحق بل للمتاجرة بها وإقصاء المخلصين.

الإسلام السياسي دائماً يهتف بتحرير القدس ولكنه رأس حربة المشروع الأمريكي في المنطقة، ما من حرب لصالح الولايات المتحدة إلا وخاضها، بدءًا من تصديه لحركات التحرر تحت مسمى محاربة الشيوعية، وتجييش الآلاف للحرب في أفغانستان لضرب الاتحاد السوفيتي خدمة للولايات المتحدة التي أرادت الانفراد والسيطرة من دون منازع، ومع الفوضى التي أعقبت ما سمي بالربيع العربي كانت جماعات الإسلام السياسي في مقدمة المشروع والمنفذ العملي لكل مراحله، وباسم الدين تم نحر الشعوب وقطع رقاب من حاول مواجهتهم، وباسم تحرير القدس تم تدمير ليبيا وسورية وكادت أن تقع مصر في المستنقع ذاته وما زالت هدفاً لهم والجائزة الكبرى لسيدهم القابع في البيت الأبيض.

هم حقاً جيش الاحتياط للولايات المتحدة يخوضون الحروب نيابةً عنها في كل مكان سواء داخل المنطقة أو خارجها. فما من قضية يتبناها البيت الأبيض إلا وسارعوا إلى الدفاع عنها، حتى في الصراع الأمريكي مع الصين يتبنون قضايا يلبسونها ثوب الدين وبدعوى اضطهاد المسلمين في ميانمار وشينجيانج ينشرون أفكارهم الطائفية التي يلجأون إليها لشحن الشباب باسم الدين.

ومن المفارقة حقاً أننا كنا نجد من يقفون بجانبنا يهتفون من أجل غزة وفلسطين ويطالبون بتحريرها، بينما هم يتبعون منظمات مدعومة غربياً، ويخوضون نفس معارك الإسلام السياسي الخادمة للأمريكان، فقد كانوا يتماهون مع المؤامرة على سورية وهللوا لسقوطها بين يدي التكفيريين، ومن قبلها ليبيا والعراق باسم الديمقراطية وحقوق الإنسان.

كذلك الحال في معارك الأمريكان خارج منطقتنا المنكوبة كما حدث في فنزويلا بعد خطف رئيسها الشرعي المنتخب نيكولاس مادورو، فلم نجد منهم من يدين البلطجة الأمريكية، بل تحدثوا عن الديكتاتورية وحقوق الإنسان في فنزويلا.

كذلك الحال في إيران يتخذون الموقف الموالي لأمريكا في صراعها مع إيران ويتحدثون عن دولة الملالي وحرية المرأة الإيرانية في خلع ملابسها، حتى لو كان هذا الموقف هو الأكثر ضرراً بالقضية الفلسطينية التي يدعون تبنيها.

دولة مثل تركيا التي لا يكف رئيسها عن الحديث عن فلسطين والقدس ويعتبره البعض خليفة المسلمين، هي دولة عضو في حلف الناتو وحجم التبادل التجاري بينها وبين الكيان الصهيوني حيث أصبحت خامس أكبر دولة مصدرة للبضائع إلى "إسرائيل" عام 2024، كما ساهمت في تدمير سورية وليبيا. كل ذلك يتم تحت شعارات تحرير القدس. ونفس الحال بالنسبة لقطر التي تدعي أنها تتبنى المقاومة في الوقت الذي تقع فيها أكبر قاعدة أمريكية في المنطقة وهي قاعدة العديد.

مع بدء الكيان الصهيوني حرب الإبادة على غزة عقب عملية طوفان الأقصى في أكتوبر 2023، ناشدنا الشعوب الحرة في العالم لمساندة القضية والضغط على حكوماتهم لتبني مواقف داعمة لقضيتنا، ولكن مع أول قضية عادلة لتلك الشعوب التي ساندت قضيتنا، تخلى الجميع إلا من الفئة القليلة التي تتجه بوصلتها في اتجاه العداء للولايات المتحدة. لم يتخلوا فقط بل بادروا إلى تبني السردية الأمريكية والسخرية ممن تضامنوا مع فنزويلا، واتهام من يتضامن مع إيران باتهامات طائفية بغيضة.

الزعيم الراحل جمال عبد الناصر وضع البوصلة الصحيحة حين قال: "لو رأيتم أمريكا راضية عني فاعلموا أني أسير في الطريق الخطأ". كذلك قال الإمام الخميني "أمريكا هي الشيطان الأعظم"، وبالتالي فالحرب النظيفة التي يمكن خوضها بلا تردد هي الحرب ضد الولايات المتحدة في كل مكان وإفشال خططها الرامية للسيطرة على العالم وفي قلبه أمتنا العربية. تلك هي البوصلة السليمة التي تشير حقاً للقدس ولكل قضية حق في هذا العالم.

البوصلة الصحيحة اليوم هي الولايات المتحدة، فقد خاب من سار في اتجاهها وباع أمته وطاف حول البيت الأبيض، وسلام على كل من سار عكس اتجاهها واختار درب الحق في كل مكان.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 100 ـــــدد
01 شباط 2026

صفحة ثقافية:

رواية "قناع بلون السماء" في البعد التطبيعي

مريم نصر الله

مقدمة

التاسع من تشرين الثاني 2021، ينهي الأسير في "سجن جلبوع الكولونيالي"، باسم خندقجي، روايته "قناع بلون السماء". صدرت الرواية التي سبقته إلى النور عن دار الآداب لتفوز بعدها بالجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) عام 2024، شهرة واسعة نالها العمل، وكثير من النقد والتحليل، حتى بات من الصعب الاكتفاء بقراءته من دون الغوص في حروفه وما بين سطوره. ولئن كان الكاتب قد عانى من عنصرية وصفاقة الاحتلال أسراً وظلماً لسنوات طوال، إلا أن ذلك لا يجب أن يجعل تناولنا للرواية متحيزاً أو مأخوذاً باعتبارات مسبقة من أي نوع، إذ شأنه شأن أي عمل أدبي آخر، يستحق منا قراءة معمقة، ورأياً موضوعياً، ونقداً حقيقياً حيث يجب، ومن هنا، ننطلق من قراءة نقدية تفكيكية، ترى في الأدب منتِجاً للمعنى السياسي لا مرآة محايدة له.

لمحة عن الرواية

في الظاهر، تتمحور الرواية حول الثلاثيني نور مهدي الشهدي، ابن المخيم، وكل المخيمات سواء، وهو رغم ملامحه الشبيهة باليهود الأشكيناز، عربي فلسطيني من اللد، باحث مختص بالتاريخ والآثار، خريج المعهد العالي للآثار الإسلامية التابع لجامعة القدس، يتيم الأم منذ الولادة. أما والده فهو مهدي، المناضل الذي خرج من الأسر بشرط تعهده عدم المشاركة بـ"العنف" طيلة حياته، أو بالأحرى المقاومة. يفجع الوالد، أو يموت، مرات عديدة، مرة عند وفاة زوجته، ومرة عند خروجه من المعتقل ليرى رفاقه قد تخلوا عنه وعن عائلته، ومرة عند توقيع "اتفاقية أوسلو"، وهم السلام المزعوم، فيقرر العمل على بسطة قهوة وشاي ويلتزم الصمت رفيق دربٍ في أزقة المخيم البائسة.

لنور صديق وحيد، مراد، أسير أيضاً محكوم مدى الحياة، "استغل درب آلامه الاعتقالية ليحيلها إلى درب معرفة وثقافة تؤدي به إلى الحرية، حريته الداخلية على الأقل". مريم المجدلية، حلم يراود نور كل ساعة، إذ يعتزم تأليف رواية حولها، مدفوعاً برغبة للرد على "شيفرة دافنشي" لدان براون. وفي سبيل هذا الحلم، يشرع في مغامرة مثيرة، حيث يلتحق بإحدى البعثات

الآثارية الصهيونية في إحدى المستوطنات إثر عثوره على هوية زرقاء في جيب معطف قديم باسم أور شابيرا، فيلبسه قناعاً يتخفى وراءه أملاً في الوصول إلى الحقيقة المدفونة تحت السردية المختلقة السائدة. وهناك يخوض العديد من التجارب ويلتقي بشخصيات محورية في العمل، أيالا شرعابي، زميلته الصهيونية في البعثة، والتي يشتهيها فيدخل معها تجربة حسية غريبة من نوعها، ونقيضتها، كما يصورها الكاتب، سماء إسماعيل، عربية فلسطينية من حيفا "من هذه البلاد"، مشاركة هي الأخرى في البعثة، يهواها نور ويجد فيها "هويته ومآله". نحن إذاً أمام هويتين يحاول الكاتب تصويرهما على أنهما متناقضتان، فأي الهويتين هي الأصيلة أيالا أم سماء، وأي الشخصيتين هي الباقية نور أم أور؟

أما في الباطن، فتكتنز الرموز والإشارات والمفاهيم الرواية، والتي إن قمنا بتفكيكها عنصراً تلو الآخر لاختلفت رؤيتنا للعمل مئة وثمانين درجة، من مريم المجدلية التي تمثل تاريخاً مسروقاً، كما فلسطين، وسردية اختطفت لصالح أخرى بديلة مختلقة، يفشل بطل الرواية في تثبيتها فيعمد إلى تخيلها باعتبار "التاريخ تخيل معقلن"، إلى الأساطير التوراتية التي لا ينكرها خندقجي بل يستخدمها نصاً أدبياً سياسياً.

وهنا تكمن الخطورة، كأسطورة شعب الله المختار وأرض الميعاد والخروج والتيه والهيكل وأسطورة اليهود كضحية أبدية، حيث يتعامل الكاتب مع هذه الأساطير بوصفها مادة سردية محايدة، لا بوصفها أدوات استعمار رمزي، ما ينطوي على إعادة تطبيع غير مباشرة مع بنيتها المهيمنة، إلى ثورة باركوخبا (132 – 135 م) والتي تمثل في العقل الصهيوني رمز "البطولة اليهودية" و"دليل الحق التاريخي"، في حين تشكل بناءً أيديولوجياً في فصول العمل يصعب تجاهله. فما الغرض من استحضار رمز يهودي بهذه الخطورة واستخدامه بهذه الطريقة؟، في حين يستحضر رمز ما يسمى بـ"المحرقة" مرات عديدة في متن الرواية باعتباره حقيقةً مسلماً بها وفي ذلك مغالطات كثيرة، وتوظف، على المقلب الآخر، رموز لغوية وثقافية ونفسية كالقناع الذي يرمى والاسم الذي يغتصب الذات والمرآة التي تنكسر واللغة التي تستخدم في سبيل إبراز الحق الفلسطيني الذي لا يموت. وتبقى أسئلة الهوية والوجود والتطبيع والخيانة والبطولة حاضرة على مدار العمل، وإذ اختار الكاتب سطوراً من جدارية محمود درويش لتكون مطلعاً لفصول الرواية، يبقى اختيار شاعر مثل درويش أمراً مهماً في سياق القراءة التحليلية، فالشاعر الذي يعتبره البعض رمزاً وطنياً مقاوماً، يتفرد بمواقف تطبيعية تنطلق من اعتراف بالعدو المحتل وانخراط في الحلول التسووية الاستسلامية على مدى حياته، ليكون مثالاً آخر من نور، بطل الرواية، الذي ارتدى قناعاً اغتصب ذاته.

تفاصيل على هامش القناع

قد يعجب المرء أحياناً من طروحات تجعله، وهو الواقع عليه الظلم، متعاطفاً مع الظالم، فيقف حائراً، هل أنا مظلوم حقاً أم أن وجودي هو السبب في ذلك؟ إذ يحاول إيجاد التبريرات للظالم أو المتوحش أو المحتل والتي تشفع له في ظلمه، وهنا يقول نور لأور: "هل أنت صهيوني حقاً، أم يهودي فحسب؟ فأنا لا أعتقد أنني وأبا إبراهيم لدينا مشكلة في كونك يهودياً، بل في كونك صهيونياً."

وهنا نسأل، ما الفارق من وجهة نظر الكاتب بين يهودي وصهيوني ما دام كلاهما يدب على أرض فلسطين، وما دام كلاهما جزءاً من المنظومة الاستعمارية الإحلالية الصهيونية؟ هل ثمة ما يجعل صهيونياً اشتراكياً مختلفاً عن صهيوني يميني برأي خندقجي ما دام كلاهما قاتل ومستعمر ومغتصب، وهنا لا بد من الإشارة إلى تعمد الكاتب استخدام مستوطنة صهيونية اشتراكية مسرحاً للأحداث، وكأن في ذلك ما يجعل الحكم مختلفاً! وينسحب الأمر على ادعاء وجود ما يسميه الكاتب "المدنيين الأبرياء من أي جهة كانوا"، ففي خضم حوار بين أور ونور، يقول أور: "لا يمكن أن نتحاور إذاً، فيجيبه نور "بل يمكننا... فأنا لا أتغذى على دماء المدنيين الأبرياء من أي جهة كانوا... لست مصاص دماء."، يمكن أن نتحاور إذاً، يخيل إليك أن ذلك مشهد من فيلم سينمائي سريالي أو مقطع من رواية خيالية، لكن صدق أو لا تصدق، تستخدم هذه الذرائع بشدة في جميع سرديات

الحلول التسووية منذ 1967 حتى الآن، فهل غاب عن بال الكاتب خطورة هذا الطرح أم أنه مقتنع حقاً بإمكانية الحوار بين القاتل والمقتول؟

وهل لك أن تتخيل أن سردية ما يسمى بالمحرقة، أصبحت بنظر مؤلف العمل مكافئاً للمأساة الفلسطينية والتي ما كانت لتكون لولا حدوث المحرقة المزعومة؟ تبرز عدة حوارات في الرواية تشدد على هذه الفكرة إذ يقول نور في رسالة لصديقه مراد: "فهل المحرقة هي التي جاءت بالدولة الصهيونية، وهل تخلق المأساة مأساةً أخرى؟"، في حين يتساءل نور في حوار مع نفسه وأور: "ما هو موقفي من المحرقة؟ لينبعث أور فجأة متسائلاً بهمس: ماذا قلت؟ وهل الموقف من المحرقة بحاجة إلى تساؤل؟ فيجيبه نور: أجل. أور: لماذا؟ نور: لأنني محروق أنا أيضاً... أور: إياك أن تقارن مأساتنا بمأساتك، هل تفهم؟"، وتقول أيالا لسماء: "بدلاً من أن تتضامني مع هؤلاء الناجين والضحايا، ها أنت تتهمينهم بارتكاب هولوكوست بحقكم؟، فتجيب سماء: بل أنا متضامنة مع ضحايا النازية وحسب، رؤيتي الخاصة بي، وليس بحسب رؤيتكم الصهيونية."، أما نور فيقول لصديقة مراد: " كنت أود في تلك اللحظة التضامنية لو هتفت بالحشد المتحلق حول الناجين الخمسة من المحرقة، لأقول: ما الفرق يا سيداتي وسادتي ما بين الأرقام الموشومة على أذرعكم والوشم الذي وشمته سماء على ذراعها: حيفا 1948؟ إن الفرق هو وجودي وشرطي مفاده أنه لو لم تقع المحرقة لما وشمت سماء ذراعها بهذا الوشم، كانت لتوشم فراشة أو زهرة أو موجة."

عن التطبيع في الرواية

هنالك نقطة جوهرية في الرواية لا يمكن تجاهلها، إن لم نقل إنها الأساس الذي يرتكز عليها مبنى العمل بأكمله، فهل نكون متحاملين لو قلنا إن في الرواية دعوةً صريحة للتطبيع مع العدو الصهيوني؟ حسنٌ، لا بد من تثبيت بعض النقاط في سبيل إبراز هذه الفكرة.

يصور العمل الأدبي الذي بين أيدينا شخصيتيه العربيتين المحوريتين كبطلين، إلا أن هذا التصوير يجافي الحقيقة في الواقع، فلنتخيل معاً، بعيداً عن أي تقييم جمالي للسرد الأدبي في الرواية، كيف أن ابن المخيم دخل هذه المغامرة منتحلاً اسم وصفة صهيوني لا يعرفه والتحق ببعثة التنقيب في قلب المستوطنة الصهيونية، ضاجع صهيونية، متحدثاً العبرية ومترجماً لأفكار جلاديه بأمانة وإخلاص، وهنا يقول نور لصديقه مراد: "لن يكفيك اعتذاري مما اقترفته أنا اليوم. من حقك أن تنتزع قلبي الآن لتغسله وتنزع منه علقة خبيثة امتصت دمي، وأحالتني إلى مترجم صهيوني فصيح اللسان. من حقك أن تقيم طقساً الآن لطرد شياطيني، شياطين مريم المجدلية التي يبدو أنها قد مستني."، ويقول في موضع آخر: "ما دعاني لتذكر حديث لأحد الأدباء الصهاينة، روائي يدعى أ.ب يهوشع، في ندوة حول خطابه الروائي الإشكالي بحسب رأيه. لا تستغرب يا مراد، نعم، لقد حضرت تلك الندوة التي عقدها أحد المراكز الثقافية غربي القدس. لقد كنت حاضراً بصفتي أور شابيرا، ولكن ليس على هذا الوجه الجلي الذي أنتحله الآن."، لكن أكثر ما يدعو للغرابة أن كلا الشخصيتين ترى في الشخصية الأخرى مطبعاً وخائناً، إذ تقول سماء لنور: "ابتعد عن طريقي، فأنت إما مجنون أو مطبع خائن، أو ضابط شاباك. فاختر لنفسك القناع الذي تشتهيه منهم، هيا ابتعد."، واللافت أن هذه البطلة في الرواية، يؤخذ عليها تطبيعها، فهي الأخرى منخرطة بنشاطات ثقافية وإجرائية مع مؤسسات عدوها، وهنا لا بد من الإشارة إلى أننا نتفهم وضع أهلنا في الأرض المحتلة عام 1948، فهم مجبرون على التعامل مع المحتل في بعض الحالات من منطلق تعامل السجين مع السجان، لكن الانخراط في مشاريع تطبيعية اختيارية لهو أمر آخر... يشبه نور سماء بمريم المجدلية النورانية، فهل تقدس من اختارت التعايش والانخراط والتطبيع؟ وهل تشبه شخصية كهذه بفلسطين؟ حاشا وكلا.

تنطلق الرواية، في الواقع، من زاوية كثيراً ما باتت تستخدم في السياق الشعبي والرسمي المنبطح أمام الاحتلال بصفته أمراً واقعاً لا مجال لتغييره، وهي فكرة، تفسر غالباً، بأنها محاولة تفكيك الخطاب الصهيوني من الداخل أو فهم السردية الصهيونية

السائدة ومخاطبتها بلغتها، وهنا يجب أن نتساءل: هل تشكل هذه البنية الروائية حقاً تفكيكاً للسردية الصهيونية، بقدر ما هي إعادة إنتاج ناعمة لها تحت غطاء إنساني رمزي؟

خاتمة

"إن الكولونيالية تفاصيل صغيرة، إنها هوس السيطرة والتفاصيل الصغيرة التي تشيد في النهاية بنية شاملة متكاملة، تفاصيل معرفية وتاريخية وثقافية ونفسية... لهذا يجب أن نحاربها بالتفاصيل ذاتها." هكذا خاطب نور صديقه مراد في رسالته، ولعل في ذلك رداً مباشراً من بطل الرواية على صاحب الرواية، والذي سواء عن قصد أو بدونه، أنتج بنية سردية يقف فيها القارئ على مفترق، أن يعجب بعمل متقدم فنياً، أو يحاكم عملاً مأزوماً سياسياً وأخلاقياً؟ هنا يكمن جوهر القصة، وإن حاز هذا العمل على احتفاء جماهيري ضخم، أو جائزة صنعت في أبو ظبي، فالحق أن ذلك لا يعني شيئاً في ميزان الأدب الذي ولد ليكون فعلاً مقاوماً، لا مساحة تفاوض مع الاستعمار، ولا تمريناً إنسانياً يخفف عن القاتل ثقل جريمته باسم الفن، ولد ليخلع القناع لا ليرتديه.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 100
01 شباط 2026

صفحة ثقافية:

لقاءات دريد لحام وباسل الخطيب في السينما

طالب جميل

قدّم الفنان السوري المعروف "دريد لحام" عبر مسيرته الفنية الطويلة أكثر من ثلاثين فيلماً سينمائياً، إلا أن القاسم المشترك بين الغالبية العظمى من أفلامه أنه قدمها بشخصية "غوار الطوشة" كونها كانت أفلاماً تجارية تعتمد على الكوميديا الخفيفة والتهريج في أحيان أخرى خاصة في ستينيات وسبعينيات وثمانينيات القرن الماضي حيث كانت شخصية "غوار" رائجة وتلقى قبولاً واسعاً لدى الجمهور العربي، وظل دريد لحام أسير شخصية "غوار" لفترة طويلة ولم يخرج منها إلا في أفلام قليلة جداً مثل (التقرير، كفرون، الحدود، الآباء الصغار، سيلينا) وهي أفلام نوعية ومهمة وتحمل مضامين وأفكاراً جيدة.

مع مطلع الألفية الجديدة تخلص دريد لحام من شخصية غوار الطوشة التي لازمته لعقود طويلة وقدم أعمالاً سينمائية ودرامية بشخصيات جديدة أكد من خلالها حضوره القوي وديمومة موهبته وامكانياته الفنية العالية التي أضاعها لسنوات طويلة واختصرها في شخصية غوار التي استهلكت وخرجت عن الخدمة منذ سنوات طويلة.

في العقد الأخير أعاد المخرج السوري الفلسطيني باسل الخطيب اكتشاف قيمة وقامة دريد لحام الكبيرة وتقديمها في ثلاثة أفلام روائية طويلة من إنتاج المؤسسة العامة للسينما في سورية وهي (دمشق حلب، الحكيم، يومين) خلال الأعوام (2018-2023). وباسل الخطيب هو مخرج تلفزيوني وسينمائي سوري من أصل فلسطيني وهو مؤسس وعميد المعهد العالي للفنون السينمائية في دمشق وصاحب بصمة مهمة في الدراما السورية حيث قدم عدة مسلسلات مهمة أبرزها (نزار قباني، أنا القدس، رسائل الحب والحرب، ذي قار، عائد إلى حيفا، عياش، حرائر، حارس القدس)، وقدم أفلاماً سينمائية مميزة مثل (الاعتراف، سوريون، الأب، الأم، مريم، حياة)، وصدر له كتاب (عن السينما والحياة عن المخرج الروسي أندريه تاركوفسكي)، ورواية (أحلام الغرس المقدس).

التقى المخرج باسل الخطيب والفنان دريد لحام خلال فترة الحرب في سورية ليقدما ثلاثة من أهم الأعمال السينمائية التي قدمت خلال العقدين الأخيرين، والتي كان القاسم المشترك فيها أنها تناولت حياة الإنسان السوري خلال فترة الأزمة وتأثيرها الإنساني والنفسي والاجتماعي ودعت للتخلص من غبار الحرب وتجاوز خراب الماضي والتطلع لبناء مستقبل أفضل للأجيال القادمة.

- **فيلم (دمشق حلب) – إنتاج المؤسسة العامة في سورية عام 2018**

فيلم كتبه (تليد الخطيب) وقام ببطولته (دريد لحام) مع نخبة من ألمع النجوم في سورية مثل (صباح الجزائري، سلمى المصري، عبد المنعم عمايري، كنده حنا، نظلي الرواس، ناصر ورديان، علاء قاسم) وغيرهم، فيما وضع اللمسات الموسيقية له الموسيقار (سمير كويفاتي).

الفيلم يتناول قصة المذيع المتقاعد (عيسى / دريد لحام) الذي يعيش وحيداً في بيته في دمشق، والذي يتمسك بقيم المهنة التي عمل بها لعدة سنوات ويرى أنها تدهورت في عصر إذاعات الـ (F.M)، ويحن للعمل بتلك الإذاعة التي أصبحت مهجورة وينتقد عدم قدرة مذيعي اليوم نطق الكلمات بلغة عربية سليمة وعدم قدرتهم على التمييز بين (اللام) الشمسية و(اللام) القمرية، ويعبر عن حنينه لزمن العروبة والوحدة الذي عاصره عبر تسلله إلى مبنى الإذاعة ليصدع بصوته الإذاعي هناك قائلاً (هنا القاهرة من دمشق، هنا بغداد، هنا الجزائر، هنا صنعاء، هنا القدس، هنا دمشق من دمشق) وهو الرجل الذي حارب في عامي 1967 و1973، ويرى أن (الربيع) هو الذي جاء بكل هذا الخراب للمنطقة.

على الجانب الآخر هناك في حلب تكون ابنته (دينا/ كنده حنا) محاصرة داخل بيتها مع ولديها في أحد الأحياء المزروعة بالألغام وبعد أن فقد زوجها جراء عملية خطف، وعليها انتظار قدوم الفريق الروسي لتمشيط المنطقة وإزالة الألغام.

يقضي (عيسى) وقته ضجراً متنقلاً بين بيته والمقهى الذي يجالس فيه بعض أصدقائه، ويحاول مساعدة ابنة صديقه الراحل الوحيدة بالترتيب لزفافها، وأثناء ذلك يقع انفجار إرهابي في المبنى الذي تتواجد فيه العروس وعريسها وأصدقاء (عيسى) المقربين، فيفقدهم مرة واحدة قبل أن يصل إلى هناك بلحظات، ليجدهم بين ليلة وضحاها ينامون بقبور متوازية بجانب بعضهم البعض في مقبرة واحدة، ليتأكد حينها أن أصدقاءه المتواجدين في المقابر أكثر من أصدقائه بالخارج.

بعد تلك الحادثة المؤلمة يقرر (عيسى) مغادرة دمشق والذهاب لزيارة ابنته في حلب، يحمل حقيبته الصغيرة ويتوجه إلى مجمع الحافلات حيث يركب بالحافلة المتوجهة إلى حلب وهنا تبدأ الحكاية في النصف الثاني من الفيلم، فيلتقي بالحافلة بشريحة متنوعة من الناس تجمعهم رغبة واحدة بالوصول إلى مدينة حلب.

يعرج الفيلم على آثار الحرب إلا أنه لم يحمل أي مشاهد مباشرة للقتل والموت، ورغم ما تخلله من كوميديا مكللة بالسواد، إلا أن الخط العام للفيلم كان يسير باتجاه زرع المحبة والانتصار على الألم وتجاوز الوجع من خلال رسالة مفادها أن مسار الحياة في سورية لا يمكن أن يعود لطبيعته إلا بوحدة وتكاتف كافة أطيافه ومكوناته، وأن لغة الكراهية والحقد والضغينة لا تنتج إلا مزيداً من الخراب والدمار، أما لغة النبل والحب فهي قارب النجاة الوحيد بعد سنوات عجاف كانت مليئة بأمواج الكراهية.

- **فيلم (الحكيم) - إنتاج المؤسسة العامة في سورية عام 2021**

فيلم من كتابة (ديانا جبور) وبطولة (دريد لحام، صباح الجزائري، محمد قنوع، عاصم حواط، روبين عيسى، ليا مبادري، ربى الحلبي، رامي أحمر، تسنيم الباشا، أحمد رافع) وغيرهم، والموسيقى لـ(سمير كويفاتي).

يتناول الفيلم يوميات طبيب مسن يدعى (جابر) يعيش في قرية من قرى ريف حمص مع حفيدته بعد أن ترك عمله في المدينة ليداوي المرضى في بلدته، رافضاً أن يحصل منهم على أجور العلاج، بل ويمنح مرضاه عينات من الأدوية التي يحتاجونها، ويقوم بشرائها أحياناً من حسابه الخاص، لذلك اكتسب محبة الأهالي في القرية.

يسهم (الحكيم) أيضاً في إجراء ولادة لامرأة من نساء القرية بعد تعذر ولادتها، وصعوبة نقلها إلى مستشفيات المدينة، فينقذ حياتها وحياة مولودها. كما يشرف على ولادة بقرة لإحدى الأسر الفقيرة، و(الحكيم) له ابنة اسمها شمس (روبين عيسى) كانت قد قضت مع زوجها في أحد التفجيرات، تاركة خلفها ابنتها طالبة الفنون الجميلة، والحفيدة التي يرى فيها الأمل لغد أجمل.

ويمر الفيلم على قصة عائلة مكونة من أرملة مصابة بالسرطان (صباح الجزائري) التي لها قصة حب قديمة مع "الحكيم" الذي يواظب على زيارتها وتقديم العون الطبي لها، وشابين يقتتلان على تركة أبيهما المتوفى، الشاب يدعى عزيز (رامي أحمر) الذي يتعاطى المخدرات ويبحث عن فرصة للسفر بعد أن شح رزقه من عمله كعامل ميكانيك سيارات، حيث يقوم هذا الشاب بسرقة بيت "الحكيم"، ويوثق يدي حفيدته ويكمم فمها، بغية الحصول على المال لشراء المخدرات، ولكن الفتاة لم تتعرف على هويته بعد أن وضع لثاماً على وجهه لإخفاء ملامحه.

ويسلط الفيلم الضوء على نشاط لشبكة دعارة وتجارة الرقيق الأبيض وهي عصابة تقودها امرأة (رهام عزيز) حيث تأمر أحد موزعي المخدرات (محمد قنوع) باختطاف حفيدة "الحكيم"، لإرغامها على العمل في الدعارة، وهذه مهمة تسند إلى عزيز أيضاً، إذ يختطف الشاب الفتاة، ويضعها مقيدة اليدين والرجلين ومكممة الفم في محل صيانة السيارات الذي يعمل فيه، وهنا يهب أهالي القرية للبحث عن الفتاة المختطفة، وبعد فقدان الأمل في العثور عليها، يكتشف حبيبها الشاب الذي كان معها أثناء اختطافها أن كاميرا هاتفها النقال قد صورت وجوه الخاطفين.

في غمرة هذه الأحداث تموت والدة عزيز بعد صراعها الطويل مع المرض، ويشارك "الحكيم" في مراسم الدفن، والذي يخبره حدسه بأن عزيز هو من اختطف حفيدته، ولا سيما عندما يتذكر كلام حفيدته وشكوكها حول هوية اللص الملثم الذي داهم البيت. وهنا يدور حوار بين الشاب والحكيم، فيرجو "الحكيم" الشاب عزيز أن يخبره عن مكان حفيدته، لكن عزيز يتهرب من الإجابة، ويتجنب الحديث مع الطبيب، وما هي سوى لحظات حتى يتمكن أهالي القرية من إنقاذ ياسمين، وتسليمها لجدها، فيما يفر الخاطفون.

- **فيلم (يومين) - إنتاج المؤسسة العامة في سورية عام 2023**

من كتابة (تليد الخطيب) وبطولة (دريد لحام، أسامة الروماني، رنا شميس، يحيى بيازي، حازم زيدان، محسن غازي، والأطفال شهد الزلق، جاد دباغ) وغيرهم، والموسيقى لـ(سمير كويفاتي).

حكاية الفيلم هي حكاية اجتماعية تركز على مظهر من مظاهر العنف الأسري، حيث يتناول الفيلم قصة غيث (دريد لحام) الذي يعمل مصلِّحا للأدوات الكهربائية في قرية اسمها (طرنيبة النهر)، وإلى جانب ذلك فإنه يمتلك محلاً للبقالة يعمل فيه مع ابنته الوحيدة سلمى (رنا شميس) وهي مدّرسة، ومُطلَّقة لعدم قدرتها على الإنجاب.

غيث يذهب يومياً إلى أسواق دمشق لشراء بعض الحاجيات لمحله، وتجمعه الصدفة في إحدى الحدائق مع طفلين هما "نغم وصباح" (جاد دباغ، وشهد الزلق)، وعندما استشعر جوعهما تعاطف معهما وقرر أن يعطيهما سندويشاته، وأثناء عودته إلى قريته يكتشف عند الحاجز العسكري قبل أن يصل القرية أن الطفلين اختبآ في مؤخرة سيارته، حيث ينزعج ويسعى مع الجندي لإيجاد طريقة يعيد بها الطفلين إلى أسرتهما، فيهرب الطفلان باتجاه القرية، ويستدلان على دكانة غيث وابنته سلمى، فما إن يصل غيث إلى القرية، حتى يستقبله أهلها استقبال المنتصرين، ليكتشف أن نغم وصباح أقنعا سكان القرية أنه أنقذهما من عصابة خطيرة.

ومن بين المنتظرين كان المختار (أسامة الروماني) الذي يقنع غيث بتجاهل الحقيقة وعدم فضح الأمر؛ لأن مسؤولاً رفيعاً سيزور القرية خلال يومين بعد انتشار خبر إنقاذه للطفلين من العصابة على الفيسبوك، والذي قام بنشره أبو رشيد (يحيى بيازي) مُربّي الماعز البسيط المهووس بمتابعة صفحة "علِّق بنقطة" وأخبارها.

يوافق غيث على ما طلبه المختار، لكنه في الوقت ذاته يبقى قلقاً وغير مرتاح لوجود الطفلين في بيته، ورغم محاولاته التواصل مع أهلهما إلا أنه يفشل مراراً؛ لأن نغم كانت تعطيه دائماً أرقاماً خاطئة، لنكتشف خلال الأحداث أن هرب الطفلين عائد إلى تعنيف والدهما (حازم زيدان) لهما ولأمهما (نجاح مختار)، الذي يضيّع كل ما يقبضه من المال الذي يجنيه من العمل في الباطون على المقامرة والسُّكُر.

تستمتع سلمى بوجود الطفلين وتلبي حاجتها إلى الأمومة، تشتري للطفلين ملابس جديدة، وتصحبهما معها إلى المدرسة، وتغدق عليهما حنانها واهتمامها إلى أن ينجح غيث في الوصول إلى والدي الطفلين عن طريق الفيسبوك بعدما نشرا على إحدى الصفحات صورة الطفلين الضائعين، ويتم تسليمها لوالديهما بمشهد درامي مؤثر.

من خلال متابعة تلك الأفلام الثلاثة يلاحظ أن جميعها أنتجت من خلال المؤسسة العامة للسينما في سورية (جهة حكومية)، ووضع اللمسات الموسيقية لهذه الأعمال الموسيقي السوري (سمير كويفاتي)، حيث تناولت التأثيرات الاجتماعية والاقتصادية والإنسانية والواقع المعيشي للشعب السوري خلال فترة الحرب، وحملت في طياتها كثيراً من الرسائل المشتركة مثل الحث على التكافل الاجتماعي والرحمة والإنسانية وتجاوز الأحقاد والضغائن والدعوة للنبل والوفاء، وعلى الرغم من جدية القصص التي تناولتها إلا أنه طغى عليها طابع الكوميديا السوداء، مع العلم أن هذه الأفلام حازت على عدة جوائز وشهادات تقدير في مهرجانات عربية وإقليمية.

أخيراً، لا بد من الإشادة بهذه التجارب المشتركة بين الثنائي (دريد لحام وباسل الخطيب) حيث كان خلاصة هذا التعاون تقديم ثلاثة أفلام سورية عائلية تحاكي واقع وهموم المجتمع السوري، وتحاكي المفاهيم الإنسانية وقيم الخير، وتقدم دعوة للحب والتعايش وقبول الآخر رغم قساوة الظروف من خلال حكايات بسيطة عبر شخصيات مستوحاة من واقع المجتمع وتنسج خيوط أحداثها بكل سلاسة وعفوية.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 100 ـــــدد
01 شباط 2026

قصيدة العدد: فلسطين الدامية / محمد مهدي الجواهري

لو استطعتُ نشرتُ الحزنَ والألما
على فلسطين مسودّاً لها علما

ساءت نهاريَّ يقظاناً فجائعها
وسئن ليلي إذ صوَّرنَ لي حلما

رمتُ السكوتَ حداداً يوم مَصرَعِها
فلو تُرِكتُ وشأني ما فتحت فما

أكلما عصفت بالشعب عاصفةٌ
هوجاءُ نستصرخ القرطاس والقلما؟

هل أنقذ الشام كتابٌ بما كتبوا
أو شاعر صانَ بغداداً بما نظما

فما لقلبي جياشاً بعاطفةٍ
لو كان يصدقُ فيها لاستفاضَ دما

حسب العواطف تعبيراً ومنقصةً
أن ليس تضمنُ لا بُرءًا ولا سقما

ما سرني ومضاءُ السيفِ يعوزني
أني ملكتُ لساناً نافثاً ضَرما

دمٌ يفور على الأعقاب فائرُهُ
مهانةٌ ارتضي كفواً له الكلما

فاضت جروحُ فلسطين مذكرةً
جرحاً بأنْدَلُسٍ للآن ما التأما

وما يقصِّر عن حزن به جدة
حزن تجدده الذكرى إذا قَدُما

يا أُمةً غرها الإقبالُ ناسيةً
أن الزمانَ طوى من قبلها أمما

ماشت عواطفَها في الحكم فارتطمت
مثلَ الزجاج بحد الصخرة ارتطما

وأسرعت في خطاها فوق طاقتها
فأصبحت وهي تشكو الأيْنَ والسأما

وغرَّها رونق الزهراء مكبرة
أن الليالي عليها تخلع الظُّلَما

كانت كحالمة حتى إذا انتبهت
عضّت نواجذَها من حرقةٍ ندما

سيُلحقون فلسطيناً بأندلسٍ
ويَعطفون عليها البيت والحرما

ويسلبونَك بغداداً وجلقةً
ويتركونِك لا لحماً ولا وضما

جزاء ما اصطنعت كفاك من نعمٍ
بيضاء عند أناسٍ تجحد النعما

يا أمةً لخصوم ضدها احتكمت
كيف ارتضيتِ خصيماً ظالماً حكما

بالمِدفع استشهدي إن كنت ناطقةً
أو رُمْتِ أن تسمعي من يشتكي الصمما

وبالمظالمِ رُدي عنك مظلمةً
أولا فأحقر ما في الكون مَنْ ظُلِما

سلي الحوادثَ والتأريخَ هل عرفا
حقاً ورأياً بغير القوةِ احتُرما

لا تطلُبي من يد الجبار مرحمةً
ضعي على هامةٍ جبارةٍ قدما

باسم النظامات لاقت حتفَها أممٌ ... للفوضوية تشكو تلّكم النظما
لا تجمع العدلَ والتسليحَ أنظمةٌ ... إلا كما جمعوا الجزارَ والغنما
من حيثُ دارتْ قلوبُ الثائرين رأتْ ... من السياسةِ قلباً بارداً شبما
أقسمتُ بالقوة المعتزّ جانبُها ... ولست أعظمَ منها واجداً قسما
إن التسامح في الإسلام ما حصدت ... منه العروبة إلا الشوكَ والألما
حلتْ لها نجدة الأغيار فاندفعت ... لهم تزجي حقوقاً جمةً ودما
في حين لم تعرف الأقوامُ قاطبةً ... عند التزاحم إلا الصارمَ الخذما
أعطت يداً لغريبٍ بات يقطعُها ... وكان يلثَمُها لو أنه لُطِما
أفنيتِ نفسَكِ فيما ازددتِ مِن كرم ... ألا تكفّين عن أعدائك الكرما
لا بَّد من شيمٍ غُرٍّ فإن جلبت ... هلكاً فللأبد أن تستأصلي الشيما
فيا فِلَسْطينُ إن نَعْدمْكِ زاهرةً ... فلستِ أولَّ حقٍ غيلةً هُضِما
سُورٌ من الوَحْدةِ العصماءِ راعَهُمُ ... فاستحدثوا ثُغْرَةً جوفاءَ فانثلما
هزّت رزاياكِ أوتاراً لناهضةٍ ... في الشرق فاهتَجْنَ منها الشجوَ لا النغما
ثار الشبابُ ومن مثلُ الشباب إذا ... ريعَ الحمى وشُواظُ الغَيْرَةِ احتدما
يأبى دمٌ عربيٌ في عروقِهِمُ ... أنْ يُصبِحَ العربيُّ الحرُّ مهتضما
في كل ضاحيةٍ منهم مظاهرةٌ ... موحدين بها الأعلامَ والكلما
أفدي الذينَ إذا ما أزمةٌ أزَمَتْ ... في الشرق حُزناً عليها قصَّروا اللِمَما
ووحدَّتْ منهُمُ الأديانَ فارقةً ... والأمرَ مختلفاً والرأيَ مُقتَسمَا
لا يأبهون بإرهابٍ إذا احتدَموا ... ولا بِمَصْرَعِهِمْ إن شعبُهم سَلِما

ممتطياً صهوة الشعر، يشهد محمد مهدي الجواهري، شاعر العرب الأكبر، على فجرٍ فلسطينيٍّ تخضّب بالدمِ والنار، حاملاً في جعبتِهِ أهازيجَ الثورةِ وصرخاتِ الحقِ. قصيدة "فلسطين الدامية" التي نظمت قبل ما يقرب من قرن، في 1929، ليست مجرد أبيات، بل هي زفرةٌ عربية حرّة في وجه التآمر، يمزج فيها الشاعر بين روعةِ البيانِ وقسوةِ الواقع، يفتحُ جرحَ فلسطينَ، لا ليشكو، بل ليُحاكمَ التاريخَ والضمير، ليُخبرنا أنَّ الأرضَ لا تستردُّها الدموعُ، بل دماء الشرفاء، داعياً إلى خيارٍ واحد: لا سلامَ مع المغتصب، بل دماء تروي الأرضَ وتُحيي الكرامة، هي صرخةٌ فلسطينية بلسانٍ عراقي، ترفضُ التسكينَ، وتفرضُ التحريرَ.

رسوم العدد:

غزة كشفت الزيف
منظمات حقوقية
الأمم المتحدة
الحق في الإعلام
المجتمع الدولي
حقوق الإنسان
بامي

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي